د. عز الدين دياب

أكرم حوراني .. كما أعرفه



* **أكرم الحوراني كما أعرفه**

* تأليف: **عز الدين دياب**

* الطبعة الأولى ١٩٩٨ م.

* الناشر: **بيسان للنشر والتوزيع والإعلام**

□ ص.ب ٥٢٦١ ـ ١٣ بيروت ـ لبنان

□ هاتف: ٣٥١٢٩١ ـ فاكس ٧٤٧٠٨٩ ـ ١ ـ ٩٦١

أكرم الحوراني كما أعرفه



تشكيل المنهج

عرفتُ الأستاذ أكرم الحوراني «أبو رشيد» في مرحلة مبكِّرة من عمري عندما جاء أول مرة إلى قريتنا. لا أذكر التاريخ تماماً، وإنما أخمن أن ذلك كان في جولته الإنتخابية الأولى. وعرفته من خلال القصص والأساطير التي حُكِيَتْ عنه من قِبلِ الخيال الشعبي، كما يفعل في كل مرة عن أبطاله وفرسانه. وغنَّيت له مع أقراني في المدرسة والحي، وعلى البيدر. واستمعت إلى أغاني النساء والرجال عنه في الأعراس والأعياد والمواسم الزراعية والموالد، وبقي في الذاكرة، بقوة الإستمرار والحب والإعجاب، رَجُلَ السياسة السورية بدءاً من مطلع عقد الأربعينات[١]. لذلك فإن دخول

---

(١) بدايةً لا بدَّ من الإعتراف أن وراء هذا الكتاب عواطف جياشة تعتمل في داخلي، وهي تريد أن أكون شاهدَ حقّ على سيرة أكرم الحوراني لإنصافه من شهداء الزور أمام التاريخ. كما تريد أن تكون كلمة وفاء بحقه، وهو صاحب المقام الرفيع في الوطنية والقومية. وهو أيضاً صاحب النَفسِ الكبيرة التي عَفَّت عن دَنَسِ الحياة.
ولذلك فإن هذه العواطف ستحكم تأليف الكتاب وتركيب مادته من ألفه إلى يائه. وأزعم أن لا غرابة في ذلك، فالكتابة عن الشخصيات التاريخية في غيابها يحكمها الحب والوفاء والتقدير.

عالمه من قبل الباحث أو المؤرخ يُواجَه بإشكاليات منهجية حمّالة أوجهٍ في الاختلاف حول شخصه وسلوكه السياسي، وعلاقاته السياسية، ونشاطه الحزبي وفكره وعقيدته. فهو بالنسبة لنا ظاهرة سياسية لها علاقات جمّة وأواصر قُرْبَى بالبناء الإجتماعي لمحافظة حماة، بوصفه مستوى القربى الجهوية أو المحلية، الذي تكونت فيه شخصية الحوراني في مرحلة الشباب. وقامت بينه وبين سكانِ المحافظة أواصر قربى متنوّعة في مضامينها ومختلفة في مستوياتها. وإعتماداً على هذه العلاقات أخذ يؤسّس حزبه ونشاطه وبرنامجه السياسي، وينظِّم علاقاتِهِ وتحالفاته مع المجتمع السوري إنطلاقاً من أن البناء الإجتماعي (الحموي) جزءٌ لا يتجزّأ منه، وهو يمثّل مستوى القربى الثاني، ومع الوطن العربي وهو مستوى القربى الثالث.

ومن خلال هذه المستويات تعامل مع العالم الخارجي. وكانت بدايته النضالية مع الظاهرة الاستعمارية التي اجتاحت آسيا وأفريقيا، وفي القلب الوطن العربي، حيث تقاسمته فرنسا وانكلترا بموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو عام ١٩١٦.

ثم مع ظاهرة الاستيطان الصهيوني في فلسطين، بوصفها صنعة سياسية غربية، أراد بها الغرب أشياءَ كثيرة ضد الأمة العربية، وعلى رأسها الحيلولة دون تمكين الوطن العربي من تحقيق أي تقدم على مستوى الوحدة أو النهضة، وضمان التجزئة السياسية، وضرب تحركه الحضاري، الذي بدأ على شكل حركات فكرية دينية، وأحزابٍ سياسية، وذلك حتى لا تستوي حالته الوطنية والقومية.

فعمل على ابتزاز الثروة العربية حتى لا تتمكن من إنتاج فائضها، وإعادة إنتاج تراكمها على النحو الذي يواكب أو يوافق حركة المجتمع العربي على المستويين الوطني والقومي، بناء على قوانينه الداخلية التي تحكم سَيْرَ تلك العملية.

فمن المعروف أن التراكم إذا تحقق داخل شروطه الداخلية فإنه يخدم لا محالة عمليات التوحيد بوصفها المطلب المصيري الذي بدونه يظل الاستقلال السياسي منقوصاً ومخترقاً على الدوام[٢].

---

(٢) في أعقاب العاصفة الأمريكية في الصحراء العربية، تحركت فلول الردة من كل صوب في الوطن العربي، وخصوصاً من تحت عباءة المراكز والمنتديات التي كانت تمولها الأحزاب المحسوبة بالعرف على العمل القومي، وحشدت قوتها تحت يافطات كثيرة متهجمة على الفكر القومي وشعاراته وأهدافه وطروحاته القومية، متهمة إياها بالعاطفية والمغالاة داعية إلى شطب الوحدة العربية تحت تعلات منهجية وواقعية أو «وقوعية» مستنكرين التسميات التي أطلقها الفكر القومي السياسي على مصر بالإقليم الجنوبي وسورية بالإقليم الشمالي بعد أن استثمروا تلك الشعارات حتى آخر لحظة، وعاشوا على حسابها أمراء في عواصم الغرب.

ومنهم من اعتبر القول بأن الأمة العربية عرفت الوحدة أو أن حقيقتها وحدوية عَبَثٌ بالعقل العربي واستهانة بالمنهج، وانسياق وراء أساطير فكرية. وإذا سألتهم لماذا قلتم بالشخصية العربية المنوالية؟ يقولون لك مرحلة ومرت، ولا بدّ من دخول الحوانيت الجديدة من أبوابها.

وإلى هؤلاء نقول إن الفكر القومي لم ينكر التَّنَوُّع الوطني، ولم يبخس أهميته في إثراء الحياة العربية. كما إنه لم يتجاهل حقيقة الدولة القطرية، وقد ميز بينها وبين الدولة الوطنية. وقال في أكثر من موقع بالخصوصية الوطنية، لكنها ليست الخصوصية التي تستنكر تجلياتها في الوحدة العربية.

إذاً، فالخطيئة لم تكن خطيئة الفكر القومي، وإنما خطيئة أهل السياسة وأصحاب القرار. ولذلك دفع الفكر القومي الثمن غالياً.

ثم أليس الخلاص من يهود أوروبا على اختلاف قومياتهم وجنسياتهم[٣]، والذي تمَّ، على حساب الوطن العربي، عملية أوروبية أفرزها حال أوروبا الاقتصادي، ونزعاتها العنصرية ـ الدينية آنذاك؟

إذاً، عندما نحاول تفسير الحوراني بوصفه ظاهرة سياسية، فإننا نقصد أن ننقِّب في خلفيته الفكرية بالقدر الذي يدعِّم معرفتنا به. وأن نضع أيدينا على جذوره الإجتماعية حتى نستشعر نزوعه السياسي وتوجهه الطبقي. وصُدْقية نضاله السياسي والإجتماعي، والمواقف التي تأثر بها. وكذلك مواقفه المبدئية التي عُرِفَ بها، وجعلته يُنهي حياته منفياً.

والجدير بالقول إن معرفة الحوراني، حتى تأخذ وجهتها الصحيحة، لا بدّ أن تحقق مستويات عدة من المقاربات الإجتماعية والأنثروبولوجية التي بغيرها لا يمكن أن نفهم ذاتيته ونُنْصِفَها، ونكتشف مصادره الفكرية التي ركَّب منها نسقه الفكري، وصاغ مذهبه العقائدي والسياسي.

---

(٣) لقد أبانت الدراسات الأنثروبولوجية أن اليهود من جنسيات عدة. حيث تبين من تلك الدراسات التي تمَّت على أيدي مجموعة من اليهود في أوروبا الغربية والشرقية، ويهود آسيا وأفريقيا أن ثمة اختلاف في حجم الجمجمة وسعة الجبهة، وتشكيل عظم الأنف، وغيرها من أجزاء الجسم. وهذا معناه في عرف هذه المقاييس أن اليهود ليسوا جنساً واحداً، وإنما هم من جنسيات متعددة ومتنوعة ولذلك، فإن القول بيهود الشتات ليس إلا قولاً أيديولوجياً صهيونياً، هدفه إضفاء الصفة اليهودية الدينية تمهيداً لجعلها وحدة جنسية من أجل توظيفها سياسياً واقتصادياً، وثقافياً في خدمة الأيديولوجية الصهيونية.

ومعرفتُهُ أيضاً تَتَطَلَّبُ التأليفَ بين عناصرَ منهجيةٍ تاريخية واجتماعية وسياسيه عدة، حتى يتمكن الباحث من دراسة ظاهرة الحوراني، والقيام برصدٍ إستراتيجي لعلاقاته السياسية، على إختلاف مستوياتها ومضامينها وَجِهاتِها. حيث أن لكل علاقة من هذه العلاقات منطقها الداخلي الذي يفسِّر اقتراب الحوراني وابتعاده عن هذه الأطراف، والكيفية التي يشتبك فيها مع الأطراف السياسية، وسبله إلى فضِّ هذه الاشتباكات. وتلك هي مداخلنا لمعرفة الأحلاف والجبهات السياسية التي دخل فيها.

وما دام الأمر كذلك، فإننا نتابع قاصدين رأي ابن خلدون في العصبية، حيث يقول عنها إنها جمّالة لنزعة الالتحام، جنباً إلى جنب مع نزعة الإنقسام. فهي من حيث كونها ظاهرة عمرانية، لا بدّ أن تمارس وظائف هذه النزعة أو تلك، حسب طابع الوحدة والتناقض داخل البناء الإجتماعي.

ولا تقتصر العصبية على قربى الدم، كما يعتقد البعض، وإنما هناك مستويات وأنواع وفعاليات عدة للعصبية، مثل عصبية المحلة والإقليم «الجهات» وعصبية العقيدة، والحزب، والنادي، ونحلة المعاش.

والمعروف أن لكل عصبية من تلك العصبيات آليات في الوحدة والإنقسام. ولها أواصرها في القربى. كما أن لكل عصبية مجموعة من المُحَدِّدات الثقافية، التي لها شأنها في تكوين ملامح الشخصية الإجتماعية للمجتمع. وهي التي تكوِّن ما يسمّيه علم الشخصية بـ «نحن» الجماعة، سواء كانت أسرة أو عائلة أو جهة، أو حزب، أو ناد.. إلخ.

وقد أفادنا المذهب الانقسامي أن العصبية تَقْسِمُ الجماعاتِ أو المجتمع إلى مستويات عدة من القربى، فيبدأ الإنسان إبن أسرته قبل أن يكون إبن عائلته، ثم إبن عائلته قبل أن يكون إبن فخذه، وإبن فخذه قبل أن يكون إبن عشيرته، وإبن محَلّته قبل أن يكون إبن قريته، وقبل أن يكون إبن وطنه.

ومن الملاحظ أن العصبية في المستويات السابقة من القربى، تواحُدُ تارة، وتجزّيء تارة أخرى. وتتقرر الغلبة لهذه النزعات أو تلك وفق طابع العناصر الثقافية ـ الإجتماعية المُسَيْطِرَةِ على البناء الاجتماعي.

والكلام عن نزعة الإلتحام أو الإنقسام في بنية العصبية جزء من منهج الدراسة. فهناك الملاحظة والمشاهدة والمعايشة أو المعاشرة والإعتماد على الذاكرة والقصص والأحاديث الشفوية التي سمعتها مراراً وتكراراً، إما من والدي أو أسرتي، أو أبناء عمي، أو من صديقي خالد الهويس «أبو ماجد» أو صحبة المدرسة، ورفقة العمل السياسي، أو ما في الأدب الشعبي من حكاياتٍ وأحاديثَ وأغانٍ و«عدّاويّات» قيلت في الحوراني.

ولهذا الجزء من المنهج تبريره حيث أن جانباً من معرفتي بأكرم الحوراني لا يتعدى تلك الجوانب أو المصادر التي كانت قرية (بسيرين) مسرحاً لها. فقد وُلِدْتُ في هذه القرية التي تتبع إدارياً محافظة حماة، ولا تبعد عن مركز المدينة أكثر من عشرة كيلو مترات. وتقع على طريق حمص ـ حماة من الجهة الجنوبية لحماه.

وقد كانت القرية مركزاً انتخابياً مهماً، له دوره في نجاح أية

قائمة إنتخابية أو سقوطها، حيث كان يتبع لها أكثر من عشرين قرية ومزرعة، حتى تاريخ قيام الجمهورية العربية المتحدة، وفي فترة الإنفصال.

وقرية بسيرين مملوكة من عائلات عدة مثل آل دياب وخلّوف دياب وشحود دياب، وآل هويس والجرجنازي، وحسّون، هذا بالإضافة إلى ملكية كل من عائلتي مصطفى البرازي وحمدو المعطي.

ويمر مشروع ري بحيرة قطينة من غرب القرية، ويسقي جزءاً من أراضيها التي تخص كلاً من الحاج حسن دياب ومحمد حمدو دياب وعبد الله دياب، ومحمد سليم دياب وبعض عائلات من آل خلّوف كما تسقي جزءاً من أراضي حمدو المعطي ومصطفى البرازي(٤).

والجدير بالقول إن وجود جزء من أراضي القرية ملكاً لآل البرازي، ووجود قرية مملوكة لآل البرازي مجاورة لبسيرين، مثل معرين. وكون بسيرين قد تحولت إلى مركز انتخابي، فإن ذلك ساهم في خلق حساسية وتناقض سياسي ثم صراع بين أغلب عائلات القرية وآل البرازي، وخصوصاً عائلتي الهويس ودياب.

وقد ساهم هذا التناقض في خلق عداوة تقليدية بين هذه الأسر

---

(٤) غداة الحركة التصحيحية استطاع خالد الهويس أن يقنع الأستاذ عبد الغني قنوت عضو الجبهة الوطنية القومية بأن يرجو الرئيس حافظ الأسد بالطلب إلى وزير الري للموافقة على إرواء الأراضي التي تقع شرق المشروع إياه بالضخ، فتمّت الموافقة وأصبح جزءٌ من أراضي آل الهويس وآل شحود دياب يسقى بالضخّ.

وآل البرازي. كما أدى إلى نشوء أواصر قربى سياسية بينهم وبين أكرم الحوراني.

وبما أن أهالي قرية بسيرين كانوا يناصرون أهالي القرى المملوكة لكل من آل البرازي، ومرهج، والشيشكلي، فقد ترتَّب على هذه المناصرة اتّساع شقّة الخلاف والصراع مع كبار المُلاّك من جهة، والتحامها مع الحوراني من جهة ثانية، بوصفه خصم الملاك الكبار ونصير الفلاحين.

وبحكم هذه الظروف مجتمعة انتميت إلى الحزب العربي الاشتراكي ودخلته من بوابة العائلة، وحظيت بمعرفة أكرم الحوراني، ثم شاءت الظروف أن أدرس في المدرسة عينها التي درس بها، وهي مدرسة دار العلم والتربية الكائنة في قصر العظم في أيامنا.

وقد شكّلت هذه الأواصر عوامل ساهمت في تحديد انتمائي السياسي المبكر، وتطوري الفكري والتعليمي، ثم موقفي داخل حزب البعث العربي الاشتراكي، وكانت هذه العوامل واحدة من مداخلي إلى أكرم الحوراني.

إذاً فإن الملاحظة والمشاهدة والمعايشة ودخولها في تركيب المنهج العام لهذه الدراسة جاءت نتيجة لتلك العوامل، وليس من جراء أي واقع آخر(٥).

---

(٥) سأعالج هذا الموضوع بتوسع في كتابي «أنا والبعث والحياة العربية» وسأضيف إليها موضوعات أخرى تزيدها توضيحاً وتفصيلاً.

والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا كان هذا المنهج؟ ولماذا صنّفناه أو شكّلناه وألّفناه على الوجهة السابقة؟ وما علاقته بمعرفتي بالحوراني؟

إن أي معرفة مهما كان نَسَقُها وموضوعُها، تحتاج إلى منهج يُفَصِّلُ فيها، ويُفَنِّد بناءَها، ويؤوِّلُ أحداثَها ووثائقَها بقدر من السلامة، وتجنُّبِ كل ما من شأنه أن يعكر الحقائق في هذه المعرفة، خصوصاً وأن المعرفة ميداناً لهذه الدراسة، لا بدَّ أن تتأثر بهوى الباحث وشجونه وعواطفه، لأن المعرفة، على منوال معرفتنا بالحوراني، هي في التحليل الأخير من بعض نتائج هذه المشاعر والعواطف، وخلاصة تستقر آثارها في وعي الشخصي أو الذاتي.

لذلك كانت معرفتي بالحوراني متقطعة وغير متواصلة، أملتها عوامل عدة مثل متابعتي الدراسة، وعملي خارج القطر، وانقسام حزب البعث وانشقاقه، وانفصال الحوراني عنه، والتزامي بخط القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، والذي أملى علي اللجوء السياسي حوالى خمسة أعوام، وذهابي إلى فرنسا لدراسة الدكتوراه خلال فترة اللجوء السياسي.

إذاً لطرح المنهج وتأليفه على النحو السابق مبرراته. فالحديث عن الحوراني وحزبه والعصبيات التي تألفت منه وحكَمَته لا يمكن أن يكون صحيحاً إلا إذا تم من خلال مداخل منهجية، تتلخص في مقاربة انثروبولوجية سياسية. كما أن الإطلالة على بنية المجتمع السوري، لا يمكن أن تحقق أغراضها إلا إذا استوفت المعالم الرئيسية لتلك المرحلة، وما يتفاعل بداخلها من عصبيات.

والخلاصة، إن هدف هذا الكتاب أن يَسُنَّ سُنَّةً حميدة، وهي إنصاف مناضلي البعث بغض النظر عن انقساماتهم، وقول كلمة وفاء بحقهم جميعاً، كل في موقعه الحزبي وما قدَّمه من تضحيات.

ويظل الكتاب عبارة عن رحلة في الزمان، ركبت، ظهر الذاكرة، مارة بطفولتي وشبابي. ولذلك حمل بين دفَّتيه على جناح السرعة تجربة الطفولة والشباب، وما حفلت به من انطباعات، وما تبقَّى منها في الذاكرة، والطفل الذي يحمل تلك الذكريات هو الآن الشيخ البسيريني الذي يسجل تلك التجربة ويرويها للأجيال القادمة.

لمحة موجزة عن بنية المجتمع السوري

«حماة أنموذجاً»

تقع مدينة حماة في المنطقة الوسطى من القطر السوري. فهي تتوسط الطريق الممتد بين دمشق وحلب. ويخترقها نهر العاصي، ويقسمها إلى قسمين؛ «الحاضر» و«السوق». وتكثر التلال في المدينة، وتجاورها السهول الفسيحة الغنية بمحاصيلها الزراعية، وقطعان الأغنام المنتشرة في كل اتجاه. وتتميز حماة بمناظرها الخلابة، وعبقها التاريخي، وتضفي عليها النواعير والبساتين الممتدة على طول العاصي جمالاً أخّاذاً يزداد روعة عندما يتداخل فيه عنين النواعير، خصوصاً وأنت تجوب حاراتها القديمة، التي تَمُتُّ في بعض آثارها إلى العصر الروماني.

أما العائلات الحموية فهي شديدة الارتباط بمدينتها. كثيرة الاعتزاز والمفاخرة بتاريخها، قوية في وطنيتها وعروبتها. ولذلك اندمجت فيها الأسر غير العربية وتزاوجت مع بقية الأسر والعائلات.

وتتميز المدينة بطابعها التقليدي الذاتي، حيث كان لجغرافية المدينة دورٌ في إضفاء ذلك الطابع عليها. فعاداتها وتقاليدها وأعرافها على الأغلب، موروثة من عهود عربية ـ إسلامية. فيها

عناصر بدوية وفلاحية، حيث تجاور الصحراء الحدود الشرقية لمدينة حماة. ومن هذه الصحراء تتم الهجرة البدوية إلى حماة دون توقف. أما طرائق الحياة فإنها لم تُخْتَرَقْ من قبل الثقافة الغربية، إلا في أجزاءَ قليلةٍ مثل اللباس وأدوات الزينة ووسائل المواصلات والهاتف والتلفاز.

ولا يتجاوز عدد سكان حماة حتى تاريخ قيام الوحدة السورية - المصرية حوالى (٣٠٠,٠٠٠) ثلاثمائة ألف نسمة. ويُعْتَبَرُ «السوقُ» الجزءَ الرئيسي من المدينة، أو الشطر الأكبر. وفيه جلّ مراكز ومؤسسات الدولة مثل المحافظة والبلدية والمديريات. وهو أكثر حداثة من «الحاضر» لأن عائلاتِهِ أكثرَ تعلماً وثقافة من سكان «الحاضر»، وأكثر غِنَى. وينقسم كلٌّ من «الحاضر» و«السوق» إلى أحياءَ كثيرةٍ، وغالباً ما تُسَمَّى هذه الأحياء بإسم العائلات التي تسكنها، مثل حي البارودية وحي الكيلانية في «الحاضر»، وحي البرازي وحي الشيشكلي في «السوق».

وتُقادُ هذه الأحياء عادة من قبل وجهاء العائلات، فهم أصحاب الأمر والنهي، وإليهم يعود القرار في كثير من الأمور الاجتماعية والإقتصادية والسياسية.

والجدير بالتنويه أن وجيه العائلة لا يكون دائماً من أبناء الأسرة الغنية، وإنما قد يكون وجيهاً بفضل ذكائه ودهائه وإمكاناته القيادية، أو بحكم عدد أبنائه، وفق مبدأ القوة في القبيلة: «عد رجالك وخذ الماء» أي بقوة رجالك تصبح لك الأولوية في سقي الأغنام. ومنهم من تأتيه الوجاهة من المال والرجال معاً.

الخارطة الاجتماعية ـ الثقافية لأحياء المدينة

سنعمل على رسم بعض الخطوط والملامح الرئيسة للخارطة الاجتماعية ـ الثقافية لأحياء مدينة حماة من أجل أن نتعرف من خلالها على انتشار الحوراني سياسياً فيها. ومن ثم أواصر القربى السياسية والعقائدية التي قامت بينه وبين هذه الأحياء.

فإذا أخذنا، على سبيل المثال لا الحصر، حي العليليّات والمعروف بـ «جبل النار» وحي الفِرَّاية، ويسمونه البساتنة، لأنهم يعملون في البساتين التي تقع على ضفتي نهر العاصي، أو الأراضي القريبة من حيهم. وما تبقّى من سكان الحي يعملون في الخدمات العامة. كما توجد فئة قليلة تعمل في التعليم الابتدائي والثانوي. هذا بالإضافة إلى قطاع عريض من طلاب المدارس الابتدائية والمتوسطة وفئة أقل بكثير من الجامعيين، وإن أخذت تتكاثر بداية منذ أواخر عقد الخمسينات فنجد أن البنية الإجتماعية لهذا الحي تتشكل من فئات إجتماعية عدة. وهناك حي السخانة في «الحاضر»، ويعود إسمه إلى أصول السكان الذين هاجروا من منطقة السخنة قرب تدمر، ويعمل الكثرة من أهاليه في تربية الأبقار والعجول والمتاجرة بها بعد تسمينها. وعادة يتم بيعها إمَّا داخل سورية، أو

يتم شحنها إلى لبنان. بينما نلاحظ أن حي البرازية هو حي الملاك الكبار، وأصحاب الوظائف الكبيرة وخصوصاً المدينية منها. لكن آل البرازي لا يتساوون في الملكية، فمنهم على سبيل المثال، نجيب آغا البرازي، الذي يملك حوالى ثلاثين قرية ومزرعة و«حوش» بينما مصطفى البرازي لا يملك أكثر من خمسة أفدنة (الفدان حوالى ۱۰۰۰ دونم، والدونم ألف متر مربع).

وهناك حي المرابط، وسكانه من تركيبة اجتماعية أخرى، حيث يتشكلون من أصحاب المهن والمحلات التجارية. وتكثر فيه فئة الموظفين في وظائف الدولة، مثل الأحوال المدنية والبلدية والمحافظة والقضاء والطابو «المصالح العقارية» وتزيد فيه نسبة الطلبة الجامعيين عن الأحياء الشعبية، مثل حي الفِرَّاية وحي العليليّات.

وتتوزع عصبية القربى إلى مستويات عدة داخل نسق قربى الدم، أو النسب. وتبدأ في مستواها الأول الأسرة ثم العائلة في المستوى الثاني، والفخذ في المستوى الثالث. ثم العشيرة والقبيلة. وتتم المناصرة حسب مستويات القربى على النحو الذي أشرنا إليه في المدخل. حيث تبدأ قوتها في الأسرة، وتقلّ عنها في العائلة وهكذا حتى آخر مستوى قربى.

وتلي هذه العصبية، عصبية قربى الحي أو عصبية المبدأ. وتتحدد مستويات نزعة الالتحام أو الإنقسام داخل العصبية الواحدة بناء على عوامل عدة، أو ما يُسمّى الجدل الاجتماعي داخل هذه العصبيات، فإذا تماثلت المصالح، وأخذ الاندماج الإجتماعي حيِّزه

وكان الحوار الإجتماعي فعالاً، كانت نزعة الإلتحام أقوى في العصبية الواحدة، والعكس صحيح على الدوام.

والجدير بالتأكيد أن العصبية تقوى وتزداد لحمة الجماعة داخلها، وتتغلب فيها نزعة الإلتحام على نزعة الإنقسام، إذا تعرضت لعدوان خارجي من قبل أي حي آخر أو عقيدة مضادة، مثل الحزب، أو أي شيء آخر يماثله.

وتوضيحاً لما نقول، فإننا نجد أن حي الفرَّاية، على سبيل المثالِ، إذا تعرض للإعتداء من قبل حي العليليّات المجاور له، كأن يكون الاعتداء عبارة عن مشاجرة بين عائلة وعائلة أخرى، أو وجيه مع وجيه آخر. إلخ، فإن أبناء حي الفرّاية يتضامنون ويقاومون ويعملون على تصفية خلافاتهم تمهيداً لرد الاعتداء أو الثأر. وقل مثل ذلك في أغلب الأحياء التي تتكون منها المدينة.

والخلاصة أن أنواعاً عدة من العصبيات مثل عصبية النسب والجهة والعقيدة تتوزع الأسر والعائلات داخل هذه الأحياء. لذلك نرى أن عامل المهنة ضعيف في المدينة على الغالب. أما عصبية العقيدة السياسية فهي أقوى، لكنها دائماً وأبداً متشابكة ومتداخلة مع عصبية النسب أو الجهة والمحلة.

وفي هذه العصبيات يكون الفرد إبن أسرته، ثم إبن عائلته وفخذه وقبيلته. وإبن حيِّه قبل أن يكون إبن منطقته («حاضر» - «سوق»، برازية - فراية) وإبن الحي قبل أن يكون إبن المدينة، وهو إبن النادي قبل أن يكون إبن صنعة الرياضة، أو المذهب الإجتماعي.

أما ثقافة المدينة على وجه العموم، فهي ثقافة قَبَليّة عشائرية تكثر فيها عناصر التعصب، وحب الوجاهة والمفاخرة، وتزدهر فيها عناصر البطولة والشجاعة والشهامة، وحب المناصرة. وتسيطر فيها العادات والتقاليد والأعراف الموروثة التي تشكل إحتياطياً لا ينفد للعصبية، ونزعة الولاء فيها للقربى أيّاً كان مضمونها.

وفي هذه الثقافة ومحيطها الإجتماعي تكثر ظاهرة القبضايات وفتوة الأحياء، وخصوصاً بين الشباب الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة، والثلاثين على أكثر تقدير.

ومن بين هؤلاء تتكون فئة الوجهاء أو الأعيان. وتتكاثر في الفئة الأولى الشلل المتناحرة والمتزاحمة على الزعامة والوجاهة، وتحدث فيها المصادمات شبه اليومية.

ويعتمد القبضايات في وجاهتهم على القوة البدنية وارتداء الملابس الجديدة المكونة من الجوخ، والأحذية اللماعة والأحزمة العريضة المحلاة بالفضة، وحمل المسابح. ويميل بعضهم إلى ارتداء غطاء الرأس، ولبس العقال الأسود. وحمل الأسلحة، مثل الخنجر والمسدس.

والخلاصة فإن الوحدة والإنقسام في البناء الإجتماعي لمدينة حماة تحكمه عوامل عدة وآليات نابعة من مستوى التطور الإجتماعي والثقافي للمدينة على النحو الذي لاحظناه منذ قليل. لذلك لا يمكن القول فيه إن الصراع الطبقي هو الذي يحكم الحياة الإجتماعية في المدينة، ولا حتى الصراع العائلي فقط، وإنما هنالك صراع النسب، والأجيال، والعقيدة الحزبية، والجهة. ويظل الإعتداء الخارجي له

أولويته في وحدة المدينة وانقسامها. وهذا ما يجب عدم تجاهله على اختلاف مستوياته وجهاته. ألم تتجمع المدينة في عصبية واحدة ضد الفرنسيين، وقاومت ببسالة نادرة، الأمر الذي دفع المستعمر الفرنسي إلى قصف المدينة بالطائرات؟ وفقدت حماة خيرة أبنائها في تلك المعركة قُدِّرت بحوالى ٨٠٠ شهيد. كما لحقت بالمدينة أضرار كثيرة بقيت ماثلة للعيان حتى الأمس القريب.

ونخلص من هذا العرض السريع للبنية الإجتماعية في مدينة حماة إلى أن المدن السورية مقسمة إلى أحياء يسكنها أصحاب النسب الواحد، ومَنْ في مَعِيَّتِهم، وتسود بينهم أواصر القربى القائمة على الدم والنسب. وهذه العصبية هي صاحبة القول الفصل في الوحدة والإنقسام والمناصرة. كما أن هذه العائلات مقسَّمة إلى أجيال على رأسها الشيوخ أو كبار السن، وهم في العادة وجهاء العائلات، ثم يليهم القبضايات، وهم من في سن الشباب. أي ما بين الخامسة عشرة والثلاثين عاماً. وحتى تاريخ قيام الجمهورية العربية المتحدة، كانت الطبقة العاملة قليلة العدد في القطر السوري، ما عدا حمص ودمشق وحلب، حيث أخذت تنمو وتكبر من خلال نمو الصناعة في هذه المدن.

وعرفت المدن السورية ظاهرة الملاك الكبار الذين يعيشون فيها، ويشكلون جزءاً من نسيجها الإجتماعي. هذا وسيكون لإقامتهم في المدينة أسباب مؤثرة في قوة المناصرة، ونزعة الإلتحام بين أهل الريف وسكان الأحياء الشعبية، والقوى الإجتماعية الجديدة، وخصوصاً فئة الموظفين على اختلاف إختصاصهم ومؤهلاتهم، وضباط الجيش.

وتتفرد حماة عن غيرها من المدن السورية، بأن الملاك الكبار فيها والذين يملكون مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية هم من أصول غير عربية، غير أنهم اندمجوا في المدينة سريعاً وتزاوجوا مع بعض العائلات فيها مثل عائلة الحوراني والشيشكلي وطيفور وعَدي... إلخ. ولذلك تميزوا بالمعاملة القاسية للفلاحين، ولم يوظفوا أموالهم في الصناعة على غرار الملاك الكبار في حمص وحلب ودمشق.

كما تكثر في حماة العائلات غير العربية مثل أرناؤوط والتركماني، والداغستاني والبوطي. على أن أغلب هذه العائلات تتفاخر بولائها القومي، وإن كان جل أبنائها ينتمون إلى الحركات الدينية، أو إلى جمعيات إصلاحية دينية.

وعندما ألمحنا إلى وجود الملاك الكبار في المدن، أردنا أن نصل إلى نتيجة مهمة ذكرناها قبل قليل، وفحواها أن الصراع الإجتماعي لم يقتصر على الملاك الكبار والفلاحين، وإنما دخلته عناصر وفئات مدينية تعمل في وظائف الدولة وأصحاب الحوانيت والمهن الصغيرة، ولذلك عاشت المدن الصراع بين وجهاء الأحياء والقبضايات والفئات الإجتماعية الجديدة من جهة، والملاك الكبار ومن والاهم وناصرهم من جهة ثانية. وكان هذا الصراع التربة الملائمة لإنبات الفكر التقدمي ونموه... ومهَّد الأجواء لشعبية واسعة في المدن لقادة الأحزاب التقدمية، مثل الحزب السوري القومي الإجتماعي، والشباب، والعربي الاشتراكي، وحزب البعث، والحزب الشيوعي.

سيجد أكرم الحوراني أن هذه التربة صالحة لنشاطه السياسي وتأسيس حزبه، ونشر عقيدته التقدمية، ومن ثم تألُّقه زعيماً شعبياً جماهيرياً في مدينة حماة، مستفيداً من تحالف أهل الرِيف مع سكان الأحياء الشعبية والفئات الجديدة في المدينة الذين أفرزهم طابع الملكية الكبيرة، والأداء الإجتماعي لأصحابها تجاه سكان الأحياء المجاورة لهم، وسيتبين لنا لاحقاً أن الحوراني سيتعامل مع التناقضات الإجتماعية بذكاء شديد، وسيحاول تغليب نزعة الإلتحام على نزعة الانقسام، داخل الأحياء الشعبية مستفيداً من التهديد الخارجي الذي يمثله الملاك الكبار. .

أما البنية الاجتماعية لسكان الريف، فقد عرفت الملكية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، وإن كانت الكبيرة تحظى بنصيب كبير لا يقل عن ٣٠٪ منها. وهناك الفلاح الذي لا يملك ويسمى «البواطلي»، وهم يشكلون نسبة عالية في ريف حماة. كما توجد أراضي المشاع وأملاك الدولة، وهذه الأراضي على اختلافها مستغلة من قبل الملاك الكبار، ومن في جاههم وسلطانهم، أو بعض وجهاء القبائل والعائلات الريفية. والمعروف أن أصحاب الملكيات المتوسطة والصغيرة يشكلون القوة الإجتماعية التي ستجابه الملاك الكبار وتقاومهم، خصوصاً في القرى التي تقع شمال مدينة حماة، والقرى الواقعة إلى جنوبها. أما القرى الواقعة إلى شرق المدينة وغربها فإنها على الأغلب كانت مملوكة إمّا لآل البرازي أو العظم والشيشكلي وطيفور والبارِودي والكيلاني.

وسيتقرب الحوراني من أصحاب الملكيات المتوسطة

والصغيرة، وسيعمل على توظيف التناقض القائم بينهم وبين الملاك الكبار لصالح حزبه وعقيدته السياسية. وسيقيم معهم تحالفاً وتضامناً إجتماعياً وسياسياً على مستوياتٍ عدَّة. هذا وسيكون همُّه اليومي إيجاد قواسم مشتركة بين العائلات التي تسكن الأحياء الشعبية، والفئات الجديدة، وبين الفئات الريفية على اختلاف ملكياتها، وأصحاب المهن والحوانيت والموظفين والطلاب من أجل أن يقوّي العصبية العقائدية بينهم، ويجعل الغلبة لنزعة الإلتحام على نزعة الانقسام، حتى يتمكن من التغلب على خصومه من الملاك الكبار.

وستؤازره وتُسانده الثقافة الشعبية بما فيها من قيم وأعراف وتقاليد تضامنية تكره الظلم وتقاومه، وتناصر الضعيف لتأخذ له حقه، وتعلي من شأن الوجاهة والفتوة والقبضايات لأنهم في الحقيقة فرسانها وحماتها وفخرها ومناصروها.

أكرم الحوراني؛ السياسي والزعيم الشعبي

عُرِف الحوراني منذ شبابه بأنه عزيز النفس، شديد الاعتزاز بشخصه وآرائه، وصاحب إرادة صلبة، وعقل راجح. يروي عنه أقرانه من أبناء جيله أو مَنْ قارَبَهُ في العمر، أنه كان يتردد على مقهى الفندق القريب من نهر العاصي، والذي كان يتوسط المدينة، وكان نسيبي سعيد الهنداوي يحكي لي قصصاً عدة عن مصادمات أكرم الحوراني مع أبناء البرازي والعظم. وكيف كان يجابههم وحده في البداية، وكان شجاعاً ومهاجماً دائماً لخصومه. وكثيراً ما كان يتحدى هؤلاء بالمنازلة.

وعُرِفَ عنه أنه كان ذا بصيرة، ينظر إلى الأمام، كما كان يقول والدي، وخالد الهويس، وسعيد الهنداوي، لذلك تميز باستشرافه آفاق مستقبل الحياة الإجتماعية السورية، وخبر النزعات والتطلعات المسيطرة على الناس وهمومهم اليومية، عايشها عن قرب عندما كان يتجول في الأحياء الشعبية، ويقُيم صداقات مع وجهائها ويجوب القرى ويزور بيوت وجهائها. ويقاوم الجور والظلم الذي يلاقونه من الملاك الكبار. فقد أجاد التعبير الصادق عن مشاعر الجماهير الشعبية، وجسّد لهم طموحاتهم المستقبلية.

ونجح الحوراني خلال فترة وجيزة في أن يكسب ثقة هذه الفئات، وأن يغوص عميقاً في وسطهم الإجتماعي، داعياً إلى المساواة والعدل الاجتماعي، ومناهضاً للظلم الذي يمارسه الملاك الكبار.

كما أدرك ببصيرته الثاقبة طابع التناقضات بين العصبيات المهيمنة في الأحياء والقرى. فعمل على حلها ودعا إلى ضرورة الوحدة والتضامن الاجتماعي بين تلك العصبيات وحشدها على شكل تجمع شعبي ضد استغلال الملاك الكبار، من أجل حياة ديمقراطية تمكن الشعب من حكم نفسه بنفسه.

ويُجمع أبناء مدينته، أنه خلال فترة بسيطة جداً، وفي مرحلة مبكرة من عمره استطاع أن يصبح السياسي الذي يستقطب الجماهير الشعبية، وأن يؤلف بينها حوله، فسبق كل أقرانه مِمَن نافسوه على الزعامة الشعبية في المدينة، واستطاع أن يقنع العديد من مثقفي المدينة بقيادته لهم تحت لواء وشعارات تقدمية، وبرنامج اجتماعي طموح. وبذلك يكون الحوراني أول قائد سياسي ومحرض جماهيري عرفته الساحة الحموية في أواخر مرحلة الانتداب وفي مطلع الاستقلال. وستكون حماة موطىء قدم لظهوره لاحقاً زعيماً سياسياً على مستوى القطر السوري كله خلال فترة وجيزة.

ولد الحوراني في مدينة حماة في ١٩١١/١١/١٨ وسجل في سجل الأحوال المدنية باسم حسن أكرم رشيد الحوراني. وكانت حماة كغيرها من المدن السورية ينتابها القلق والاضطراب الاجتماعي، واتصفت الأوضاع الاقتصادية فيها بالتردي والاستغلال

ومصادرة الدولة للكثير من مواسم الفلاحين. وكان ابتزاز الريف، عهدئذ، من المعالم البارزة دون تقدير للحقوق الدنيا للفلاحين. كما كان الملاك يُخضِعون الريف لنظام المزارعة والقائم إما على نظِام المرابعة أو الخماس، أو طريقة الإيجار.

واقترن هذا الاستغلال بحرمان الريف والأحياء الشعبية في المدن من أبسط الخدمات الصحية والاجتماعية والتعليمية. وكان الريف ضحية الكثير من الأوبئة التي حصدت خيرة شبابه، أما التعليم، فقد اقتصر آنذاك على الكتّاب في أحسن أحواله. وبقي الحال هكذا حتى منتصف الخمسينات، حيث أخذت الدولة تفتح بعض المدارس الإبتدائية. كذلك لم يعرف الريف السوري الكهرباء ولا المستوصفات حتى تاريخ قيام الوحدة السورية المصرية، حيث عملت السلطة على إنارة بعض القرى. ولم تتحقق الإنارة الكاملة للريف إلا في أعقاب الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠ إذ أحدث دخولها تحولات كمية ونوعية في حياة القرية، ولا نغالي إذا قلنا إن دخول الكهرباء شكّل منعطفاً في حياة الريف ومدخلاً لحياة جديدة، أبرزها الهجرة المعاكسة إلى الريف. وهذه الظاهرة كان لها معانٍ فكرية عدة ونفسية واجتماعية واقتصادية، أبرزها أن الريف أخذ يستعيد وعيه المفقود المتمثل بأبنائه المتعلمين والمثقفين.

وينتمي الحوراني إلى عائلة عربية الجذور والانتماء. وعرفت من والدي أن عائلة الحوراني في الأصل رفاعية، وهؤلاء أصحاب طريقة صوفية.

والده رشيد الرفاعي، كان نسَّاجاً للأقمشة. وصاحب ملكية

زراعية صغيرة في غربي حماة، وكبرت هذه الملكية بجهوده لأنه كان يشتري من وقت الى آخر أراضي زراعية ليضيفها إلى ملكيته حتى صارت تكفيه للعيش بدلاً من حياكة الأقمشة وبيعها. وقال لي والدي في أكثر من مناسبة إن رشيد الحوراني كان متديناً ورعاً طيب القلب، حسن المعاشرة، مناصراً للحق. يجيرك إذا قصدته. يكره الظلم الاجتماعي ويقاومه. يناصر الفقراء ويساندهم في قضاياهم. وكانت له علاقاته الواسعة مع الناس، يتنقل في أوقات الصلاة من مسجد إلى آخر، يعاشر رجال الدين ويشارك معارفه أفراحهم وأتراحهم. وهو موضع ثقة من قبل جيرانه ومعارفه.

ويروي لي والدي أنه رافقه بالصدفة في رحلة إلى حمص لحضور خميس المشايخ الذي كان يقام هناك قرب مسجد خالد بن الوليد، ومعه مجموعة كبيرة من وجهاء حماة. وكان في القطار أيضاً بعض الملاك الكبار، أذكر منهم نجيب البرازي. وقد لاحظ الوالد، كما روى لي، أن رشيد الحوراني لم يجالس نجيب البرازي وصحبه خلال هذه الرحلة، وعند نزوله في محطة حمص اقتصر الكلام بينهما على التحية والمجاملة المشوبة بالحذر والحساسية المعروفة، بين الخصوم.

ويعزو والدي سبب ذلك إلى أن رشيد الحوراني كان على خلاف معهم بسبب الظلم الذي يمارسونه في الريف. فقد عرف عنه تعاطفه مع الفقراء ومساندته لهم.

تربى الحوراني في مدرسة والده هذه وتخلّق بقيم المساواة والعدل الاجتماعي، ورفض الاستغلال، ولذلك نراه قد ناهض

الظلم في مرحلة مبكرة من عمره، وقاوم الاستعمار مع أقرانه وهو في ريعان الشباب. وعرف بنزعته القومية التي لازمته منذ صغره. وعبر عنها في تعاضده مع ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١، وتطوعه في فرق المجاهدين ليقاتل الصهاينة في بطاح فلسطين عام ١٩٤٧. إذاً منحت أسرة الحوراني الحصانة الأخلاقية لأكرم في تبنّي قضايا الفلاحين وفقراء المدن، وانحيازه لهم في مرحلة مبكرة من عمره عندما كان طالباً في الجامعة.

أما حصانته الثانية، فهي مدرسة عثمان الحوراني النضالية التي تركت بصماتها على شخص أكرم. فقد شكل عثمان الحوراني ظاهرة وطنية تقدمية تميزت ببعدها القومي الذي تمثل في مشاركته وصحبه في ثورة رشيد عالي الكيلاني. وعرف عنه إنحيازه لمصالح الفئات الشعبية. فهو أستاذ مادة التاريخ الذي عرف بنبراته القومية، وتشدده في وطنيته وتبشيره في تقدم الوطن العربي على أساس المساواة والديمقراطية، والعدل الاجتماعي. وكان طلابه في مدرسة دار العلم والتربية ينصتون لدروسه، ويتشبعون بآرائه الوطنية والقومية، ومنهم أكرم الحوراني، ويتحمسون لمبادئه الوطنية. وقد كان عثمان الحوراني بالإضافة إلى نجاحه كمدرس لمادة التاريخ، متفوقاً في استقطاب الطلاب لصالح دعوته للنضال ضد الاستعمار الفرنسي، حيث كان تحرير سورية هاجسه اليومي.

وأذكر أن أستاذنا الفاضل مدير مدرسة العلم والتربية أبو سليم الوتّار كان يحدثنا خلال لقاءاته معنا عن عثمان الحوراني وبطولاته، وقدراته المتميزة في تدريس مادة التاريخ إلى الحد الذي يجعل

الطلبة يبكون من شدة تأثرهم به، وهو يقصُّ عليهم بطولات يوسف العظمة وصحبه في مقاومة الاستعمار الفرنسي. وكان أكرم، كما قلنا، واحداً من هؤلاء الطلاب. لذلك انضم إلى حزب الشباب الذي أسسه عثمان الحوراني واحتل مكاناً قيادياً فيه بفضل نضاله الدؤوب، وليس لأنه قريب عثمان الحوراني، كما يدعي البعض. فأكرم عندما انتسب إلى حزب الشباب لم يكن شخصية ثانوية أبداً، وإنما عرف في أوساط مدينة حماة وخصوصاً الشباب بأنه شديد الاعتزاز والثقة بنفسه ويتميز بجرأته في المواقف، وأنه صاحب قضية ورجل سياسة. ولذلك إلْتَفَّتْ حوله قاعدة حزب الشباب بسرعة، وهي القاعدة المُشَكَّلَة من وجهاء الأحياء الشعبية، والطلبة، وأصحاب الحوانيت، والموظفين والثوار.

ولذلك صعد أكرم الحوراني بسرعة إلى دفة قيادة حزب الشباب وأصبح نجمه السياسي. وأذكر أنني رافقت الوالد مع عدد كبير من أبناء عائلتي وآل الهويس، وعلى رأسهم محمد حمدو الدياب الملقب بالحجيجي، وخالد الهويس. وحضرنا احتفالاً أقيم في مقر الحزب آنذاك والكائن في شارع جانبي متفرع من شارع المرابط قرب منزل الدكتور قاسم آغا، وقد ألقى أكرم الحوراني خطاباً طويلاً تكلم فيه عن أهمية الاستقلال، وضرورة مقاومة ظلم الملاك الكبار، ودعا الجماهير إلى النضال من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة، وأذكر أن خطابه قوطع مرات ومرات بالتصفيق والهتافات، ولأول مرة أسمع هتاف «أبو رشيد شو بتريد لنساوي، وانقطع روس ونلفّه بالمزاوي» و«أم النواعير تنادي وأكرم يا زعيم

بلادي» وهتافات أخرى، وكلها تشيد به وبمبادئه وشجاعته. وكان المقر قريباً من مدرسة «ملجأ الأيتام» التي درستُ فيها حتى الصف الرابع الابتدائي، حيث كانت المدرسة تقبل الطلاب على أساس النظام الداخلي. أي الذي يقيم في المدرسة ويأكل وينام ويتعلم فيها مقابل مبلغ شهري من المال. وكان معي في هذه المدرسة ابن عمي مظهر ابن محمد حمدو دياب، وأخي في الرضاعة. وزاملنا مجموعة من الطلبة الذين أتوا من القرى (مثل قلعة المضيق «أفاميا» وبعض قرى الغاب)، ومن أبناء بعض شيوخ القبائل، ومن سلمية التي تقع شرقي حماة.

ولا بأس أن أشير هنا إلى أنني تتلمذت على أيدي مجموعة من الأساتذة الأفاضل أذكر منهم أستاذ اللغة العربية الشيخ أحمد درويش ومنير الريس ومدير المدرسة [. . .] العلواني، ويعود للشيخ الفاضل أحمد درويش كل الفضل في تعويدي على مطالعة الكتب الأدبية وخصوصاً جبران خليل جبران، ولطفي المنفلوطي وعباس العقاد. . إلخ.

وكان يحثّني كثيراً على حفظ القصائد. وقد أفادتني كثيراً قراءتي للقرآن الكريم على أيدي الشيخ طه الخطيب «أبو أحمد» من فلسطين، والشيخ سليم حمدان شحود دياب، ولذلك كنت من المتفوقين على أقراني في مادة الانشاء ثم الإنشاء الأدبي.

وهناك حصانة ثالثة للحوراني، هي مدينة حماة، شارعها، سكان الأحياء الشعبية، ريفها الممتد على أطرافها كافّة. فمن المعروف عن هذه المدينة أنها شديدة الوطنية، قوية في عروبتها،

متدينة حتى النخاع على طريقتها، صارمة في تربية أبنائها، محبة للضيف، وكأنها وريثة حاتم الطائي بحق. ويتميز شبابها بقوة الاندفاع والشهامة والشجاعة ويكرهون الظلم، ولكن يمارسونه في خصوماتهم، وفي تفريقهم بين الريف والمدينة. يقاومون الظلم، لكنهم يعيشونه على مستوى الصغير مع الكبير، وصراع الأجيال، وبين الشلل داخل الحي، وضد الشلل في الأحياء الأخرى. وهذه الازدواجية في السلوك الاجتماعي، هي من إفرازات الثقافة السائدة في المدينة، حيث يتعايش في داخلها الكثير من العناصر الثقافية الاجتماعية المختلفة في المضمون والدور والوظيفة. فهي تعطي الجرأة والشجاعة مقاماً رفيعاً في العقلية العامة للمدينة. غير أن هذه الشجاعة غير محددة الهوية. فقد تكون الشجاعة ممثلة في العدوان على ابن العم، أو الجيران، أو على الحي المجاور. وهي في الوقت نفسه ماثلة في مقاومة الملاك الكبار والاستعمار الفرنسي.. إلخ.

ولا شك أن الثقافة التقليدية السائدة في حماة قد طبعت الشخصية الإجتماعية لمدينة حماة بتلك المعالم، وقد وجدت هذه المعالم تعبيرها داخل شخصية أكرم الحوراني بشكل أو بآخر، فأخذ منها كرهه للأجنبي، وتعلّم فيها مقاومة الاستعمار الفرنسي، ونمت فيه معارضته للظلم الاجتماعي، واهتمامه بمناصرة الفقراء والضعفاء والدفاع عن حقوقهم. كما جعلت منه سياسياً ومحارباً في آن معاً، لأن السياسي بدون قدرة على المحاربة لن يكون له أي نصيب من النجاح والزعامة في حماة. فالشجاعة شرط أساسي للسياسي والقائد

الجماهيري. فالمدينة التي تنمي ثقافتها شخصية «القبضاي» أو «الفارس» لا يمكن أن تقبل السياسي الخائف أو الضعيف. وذلك هو قانون ثقافة القوة الذي ينظم علاقات الناس في الأحياء، وداخل العائلات والأسر. أليست هي الثقافة التي تعلمنا فيها القول الذائع «عد رجالك وخذ الماء». أي لكي تتمكن من أن تروي أغنامك من النبع، فعليك بالرجال الذين يمنعون الأغنام الأخرى من الاقتراب، حتى تروي أغنامك.

أكمل الحوراني دراسته التي تمكِّنه من الذهاب إلى مدرسة عنبر في دمشق لنيل الشهادة التي تؤهله لدخول الجامعة. وفي مدرسة عنبر تعرف على الكثيرين من القيادات الطلابية آنذاك وهم رجالات سورية داخل الساحة السياسية بعد حين. كما عايش بعض الدعوات السياسية والعقائدية، واطلع على التيارات الفكرية السياسية المتداولة في الحياة الدمشقية حينئذ، وخصوصاً بين الطلبة.

ومن مدرسة عنبر ذهب إلى الجامعة اليسوعية في بيروت لدراسة الطب هناك. غير أن السياسي الذي يعيش داخل شخصه، دفعه إلى ترك دراسة الطب والعودة إلى دمشق للانتساب إلى معهد الحقوق في جامعة دمشق.

ووجد ضالته في أجواء معهد الحقوق الفكرية والقانونية والسياسية، وبقي على اتصال بحزب الشباب الذي كان يشبُّ ويكبر في مدينة حماة. وأخذ يضيف إليه تجربته القصيرة في الحزب «السوري القومي الإجتماعي»، حيث أضاف له هذا الحزب الكثير من المعارف التنظيمية والنضالية، والتقنية السياسية. وما كان على

الحوراني، إلا أن يتابع دراسته للحقوق ونيل الشهادة التي تخوله شغل مهنة المحاماة ليعود إلى حماة وقد ترك فيها إرثاً وطنياً، سيوظفه لاحقاً في نشاطه السياسي، وخصوصاً بعد تأسيس الحزب العربي الاشتراكي.

ويحضرني بهذه المناسبة، ما رواه لي صاحب صيدلية الجامعة القريبة من ملجأ الأيتام والبحرة التي كانت تتوسط الساحة آنذاك، وهو «السوري القومي» عهدئذ، بأن الحوراني انتسب إلى «السوري القومي».

وأذكر أني رويت إلى كل من خالد الهويس والأخ كبير الجاه في نفسي علو الحريري هذا الكلام، فكان رد علو أو علاء «هذا علاّك» رغم أن انتساب الحوراني إلى «السوري القومي» لا يضيره أبداً، وإنما هو تحصيل حاصل، كما يقال، لطالب جامعي احترف في مرحلة مبكرة من عمره السياسة والنضال ضد الاستعمار، وأخذ على عاتقه مقاومة الملاك الكبار في مدينته. وقد كانت مبادىء الحزب «السوري القومي» حينذاك مؤثرة في الحياة الطلابية بحكم نشاط الحزب اليومي، وتألقه في النضال ضد الاستعمار الفرنسي. وطرحه للوحدة السورية بطريقة تغري الشباب بالإنضمام إلى الحزب «السوري القومي». وحريٌّ بالأمر أن يكون الحوراني واحداً من هؤلاء الشباب. أقول ذلك وفي ذهني الهجوم الذي كان يقوده عليه خصومه من واقعة انتسابه إلى الحزب «السوري القومي». وكان هذا الهجوم يربكنا نحن شباب الحزب، إلى الحد الذي كان يدفعنا إلى تكذيبه وخصوصاً بعد اغتيال عدنان المالكي، علماً بأن خبرته في

«السوري القومي» جعلته يساهم في تطوير حزب الشباب وتحويله لاحقاً إلى الحزب العربي الإشتراكي، كما أسلفنا منذ قليل.

وأعتقد أن ظاهرة المرافقة المسلحة لأكرم الحوراني خلال زيارته للأحياء الشعبية وتجوله في ريف المدينة، وأثناء المؤتمرات والمهرجانات الشعبية، هي من وحي التنظيم المسلح الذي عرف به الحزب «السوري القومي».

وإذا كان الحوراني لم يذهب بعيداً في هذه التجربة، ولم يتبنَّاها على النحو الموجودة في الحزب «السوري القومي»، فإن مبرر ذلك يعود إلى تناقض هذا التنظيم مع الحياة الديمقراطية البرلمانية، التي كان يطمح الحوراني إليها، ولذلك اقتصر التسليح في الحزب الاشتراكي خلال مناسبات محدودة، وخصوصاً خلال الإنتخابات النيابية والمهرجانات الشعبية، وزياراته للأحياء والقرى، كما قلنا منذ قليل. هذا بالإضافة إلى طابع حماة العشائري، حيث لا يتقبل الفرد الأوامر، والأداء الحزبي القائم على التنظيم السرّي، إلخ... كما أن القيادات الرديفة أو الحرس القديم من أمثال علي عدي، ومحمد عطورة، وعثمان عدي، وغيرهم من المحامين والأساتذة والمعلمين لا يرتاحون إلى النظام شبه العسكري الذي مثله التنظيم المسلح داخل الحزب «السوري القومي».

وثمة شاهد على هذا الأمر: أذكر أنني بعد أن أمضيت في حمص ثلاث سنوات دراسية في مدرسة عمر بن الخطاب التي كان يديرها محمد طيب الخوجة، انتقلت إلى مدرسة التربية التي أسسها الحزب، وكان يديرها شريف الراس، ودعيت إلى اجتماع حزبي،

وكان على رأس هذا الاجتماع علي عدي، وكان هدفه أن نقوم بمظاهرة طلابية، أقول إنني في هذا الاجتماع طالبت أن يكون اجتماعنا على شكل حلقات حزبية سرّية، حتى لا تكشِفَ أمرَنا الشعبة السياسية، فكان تعليق علي عدي على ذلك ما معناه أن كل واحد من الطلاب يقرأ عدة كلمات، يأتي ويتفلسف علينا، ورفض هذه الفكرة بانفعال كعادته مع الطلاب.

وكنت قد وعيت الأهمية التنظيمية السرية للحلقات الحزبية من خلال إنتقالي إلى تنظيم حزب البعث العربي، أثناء دراستي في حمص، وكذلك بفضل قراءاتي المبكرة لبعض الكتب الماركسية، حيث جاورني، خلال سكني في غرفة بحي باب تدمر، عامل نول يدوي، كان يحضر هذه الكتب ويطلب مني أن أقرأها له، وهو يشرب الشاي، ويدخن لفافات تبغ ماركة «الجيش» وكان يسألني بعد قراءتي له صفحات عدة هل فهمت ما قرأت، وكنت أجيبه دائماً بكلمة «لا» فكان يشرح لي ما تعنيه تلك الصفحات، ولهذا العامل «قدور» دوره في فتح آفاق فكرية «ثقافية» أمامي ما كان لي أن أطلع عليها وأتثقف بها في عمري آنذاك لولاه. وأزعم أن ميلي المنهجي ـ إذا صح هذا التعبير ـ كان خلاصة لتلك القراءات الماركسية المبكرة[٦].

---

(٦) نأتي على ذكر عامل النول المرحوم «قدور» وهو الاسم المحبب له في كتابي: «أنا والبعث والحياة العربية». لأن لي معه جولات نقاشية، حيث كان يريدني أن أصبح شيوعياً.

أعود لأقول إن تعليق علي عدي على كلماتي آنذاك كان له وقعه السلبي على شخصيته في وعيي وعزوفي عن لقائه، وزاد الطين بلة، كما يقول المثل الشعبي، عندما حضر إلى حمص لمتابعة الإنتخابات التكميلية لأحمد الحاج يونس مرشح الجبهة الوطنية التقدمية، ومنها حزب البعث العربي الاشتراكي، وقد قابلته بالصدفة أمام مقر حزب البعث العربي الاشتراكي الكائن آنذاك في شارع الدبلان. وكان معه أبو النور طيارة وفوزي الصفوة وخالد الهويس. وكنت قد حضرت إلى المقر من أجل هوية ناخب من حي باب تدمر، كلفني بالذهاب من أجلها «. . . .» العرجة، الذي كان يحتل مكاناً نقابياً هاماً في حمص.

فقابلني خالد الهويس بفرحة وأراد تقديمي إلى علي عدي، غير أنه لم يأبه بذلك، وتجاهلني كلية. وكنت أسأل نفسي آنذاك لو أنني كنت أنتمي إلى إحدى العائلات الحموية، هل كان يتصرف هذا التصرف غير اللائق وغير المتحضّر، هذا بالإضافة إلى ما كان يرويه لي من بعد خالد الهويس عن دوره في الغاب وتقبُّله الهدايا لحل مشاكل الناس بدءاً من عام ١٩٥٧. ثم مقاومته المستميتة لترشيح سيف الدين الخالد في قائمة الحزب الإنتخابية وقوله آنذاك، والزمه على الراوي خالد الهويس، «ناقصنا فلاحين».

وأذكر أن هذه الحادثة التي كتبها إليّ خالد الهويس في رسالته وأنا طالب في جامعة القاهرة، هزّتني من داخلي وجعلتني أغضب كثيراً حتى أني رويتها لكثير من معارفي في الجامعة؛ منهم مدحت جمعة ومروان الخاني، وأذكر أن مروان تضايق من حديثي عنها في

«بوفيه» مكتبة الآداب بجامعة القاهرة آنذاك.

وقد كتبت حينها رسالة إلى أبي ماجد، قلت له فيها ما مفاده إن الحزب الذي يرفض ترشيح سيف الدين الخالد لأنه فلاح لا يستحق البقاء، وإن العقلية التي تفرق بين أبناء الريف والمدينة، يجب أن تحارب بقوة، وأن تُصَفّى من داخل الحزب لأنها وصمة عار في جبين أي حزبي.

والخلاصة، فإن هذه الحصانات مجتمعة هي التي أعطت الحوراني قوة الاستمرار وإمكانات النجاح كقائد شعبي. ووفرت له استقطاب جموع الفلاحين تدريجياً، والذي سيصبح بعد وقت قصير «ثعلب» السياسية السورية وفارسها، وظهير الريف في نضاله ضد الملاك الكبار.

وقد ساعد الحوراني في نجاحاته السياسية وبروزه كزعيم سياسي لامع قدرته الخطابية. فقد كان يتمتع بموهبة خطابية قلَّ من يضاهيه فيها من السياسيين والمرشحين في محافظة حماة، فيختار حلو الكلام وأكثره سهولة، ويخاطب الناس في أمانيهم وتطلعاتهم ويتناول فيها معاناتهم، وهمومهم اليومية، ويبشرهم بمستقبل لا مكان فيه للظلم الاجتماعي، والجهل والتخلف. هذا وقد حفلت خطبه بالوعود التي تمثل مطالب للفقراء والفلاحين بإشاعة العدل الإجتماعي والمساواة بين الناس ونشر التعليم المجاني في المدينة والريف، وإعطاء الريف القدر الذي يستحقه من الخدمات الصحية والاجتماعية، والعمل الدؤوب لمنع تهجير الفلاحين من قراهم، وتنظيم الملكية الزراعية تمهيداً لتطبيق الإصلاح الزراعي تحت شعار

الأرض لمن يفلحها. والوعود التي كان يعطيها أكرم الحوراني لجماهير الفلاحين وفقراء المدن ما هي في الحقيقة إلا برنامجه السياسي والانتخابي، ونلاحظها موجودة في دستور الحزب العربي الاشتراكي، وأدبياته آنذاك وبما يسطره الحوراني من مقالات في الصحف.

والجدير بالذكر أن الحوراني استفاد استفادة جمّة من تنقله بين مدرسة عنبر والجامعة اليسوعية في بيروت ومعهد الحقوق في جامعة دمشق. فقد زاد مرانه السياسي، وعمّق ثقافته الأدبية والحزبية والقانونية، واكتسب خبرات وصداقات ومعارف جديدة، فانفتح على الأحزاب والحركات السياسية الموجودة على الساحة اللبنانية، وتعرف إلى أطروحاتها ومبادئها، وسبلها في العمل السياسي والتعبئة العقائدية، واطلع على التيارات الفكرية التي تعمل داخل الحياة اللبنانية، ومن خلال ذلك كله استشعر الاتجاهات العقائدية في الوطن العربي لأن لبنان كان ملتقى للطلبة العرب الذين يأتونه للدراسة في الجامعة الأمريكية واليسوعية، أو يدرِّسون في مدارسه الثانوية. واهتم بشكل خاص بالفكر الاشتراكي ليعرف أي المدارس الاشتراكية أنسب لبلده سورية، وللجماهير الفلاحية هناك في إطار اختياره الحياة البرلمانية كأسلوب ونمط في الحكم. كما أنه أطل على حركات التحرر الوطني الموجودة في العالم.

وأعتقد جازماً أن معرفته المباشرة بكلٍّ من ميشيل عفلق وصلاح البيطار وحواره معهما نبّهاه إلى إعادة النظر في حزب الشباب. وهيَّأه ذلك إلى تشكيل حزب جديد يشكل نقلة نوعية لحزب

الشباب، فقد تيقَّن أن حزب الشباب لا يشبع نهمه، ولا يغطي طموحاته. فهو لا يريد بعد الآن أن يكون نشاطه السياسي مقتصراً على مدينة حماة، فحزب الشباب ولد حموياً، وسينتهي في هذا الإطار المحلي لأنه وُجِدَ أصلاً لمقاومة الاستعمار الفرنسي رغم ما حمله برنامجه السياسي من أفكارٍ إصلاحية ودعوة للوحدة الوطنية والقومية، وإشادته بالتكافل الاجتماعي.

وبين دمشق وبيروت إرتقت الأهداف والطموحات، وعرف الحوراني فيها نفسه جيداً بأنه لم يولد ليبقى في حماة وحدها، فثمة آفاق أوسع وأكبر تنتظره وتحثُّه ليحقق وجوده فيها. لأنه يدرك إدراك العارفين أن إمكاناته أكبر من محيط محافظة حماة، وأبعد من حدود سورية السياسية، وأن ما يجري على الساحة السورية جزء لا يتجزأ مما يجري في الوطن العربي.

لذلك كله أراد أن يحقق الإنسجام بين ولائه الوطني وانتمائه القومي. وهذا لن يتم إطلاقاً بدون حزب له أهداف قومية وتطلعات وحدوية. فقد كان عفلق والبيطار هكذا، أو على هذه الشاكلة. وكذلك أنطون سعاده. فقد عاش الحوراني تجربته عندما انتمى إلى الحزب «السوري القومي»، والحوراني لا تخونه نظرته واستشرافه المستقبل، خصوصاً وهو ابن حماة التي تتمتع بإرث ثقافي في النضال الوطني والقومي تلزم من يعيش فيها أن يكون عربي الولاء والإنتماء. وقد كان لهذا الإرث براهينه القومية في شخص الحوراني عندما توجه هو وصحبه إلى العراق لمناصرة ثورة رشيد عالي الكيلاني والقتال في صفوفها ضد الإنكليز، باعتبارها جبهة من

الجبهات القومية في النضال والثورة ضد الاستعمار[٧].

وهناك أي في العراق، تعرف أكرم الحوراني على جمال الأتاسي مبدع شعار البعث، على ما أظن:

أمة عربية واحدة * ذات رسالة خالدة

وكانت هذه المعرفة إيذاناً بالمزيد من التقارب مع ميشيل عفلق وصلاح البيطار، وخطوة محسوبة في المستقبل لتشابه الشعارات والمبادىء والأطروحات بين الحزب الذي يشكله لاحقاً أكرم الحوراني، وحزب البعث العربي بشرت به مقالات عفلق في نقطة البداية، وأحد المداخل لزيادة أواصر القربى العقائدية والنضالية.

ومن المهم بمكان القول، وكما يستفاد من أحاديث الحوراني بنبرات صوته وهو يتحدث عن ثورة رشيد عالي الكيلاني التي شاركت فيها شخصيات عربية عدة، إن فشل هذه الثورة والعنف الذي مورس ضدها من قبل الاستعمار البريطاني فتحت عينيه ولفتت نظره وانتباهه إلى قضايا هامة مصيرية، وعل رأسها أهمية الوحدة

---

(٧) قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١، وذلك بعد رفض القوات البريطانية المحتلة شروط رئيس الوزراء الكيلاني، فأمر رئيس الوزراء العراقي بإرسال قوات عسكرية عراقية إلى القاعدة الجوية البريطانية التي لا تبعد كثيراً عن بغداد لإملاء شروط الحكومة العراقية. لكن الاستعمار البريطاني، ممثلاً في قواته الموجودة في العراق رفض الشروط العراقية، وقام بضرب القوات المتجهة إلى القاعدة بعنف وهمجية وحقد تاريخي، وأجبرها على الإنسحاب بعد أكثر من شهر من القتال.

العربية، والعداوة التاريخية للأمة العربية من قبل أوروبا، ودورها في تجزئة الوطن العربي، وفرض التجزئة بالقوة تارة، والدسائس السياسية تارة أخرى. وقد سمع جيلنا الكثير والكثير عن تلك العداوة من الحوراني نفسه، وهو يصول ويجول في الريف، ويعقد اللقاءات والمؤتمرات في المدينة. إذاً كان لتجربة الحوراني في العراق ثمارها القومية، تمثلت حسب زعمنا على وجه الدقة في صياغة مبادىء الحزب العربي الاشتراكي.

ونعود إلى عام ١٩٣٩، وهو العام الذي يمكن أن نسميه عام الحوراني. فقد ألقى الحوراني خطاباً سياسياً هاماً صار حديث الناس. وقيل عنه ما قيل من مدح وإشادة. وحبكت حوله عشرات القصص، وصار البطل المنتظر.

بدأت صورته تدخل البيوت تباعاً. وتوضع في صدر الغرف والمضافات، وخصوصاً صورته في لباس المجاهدين. و«طق عرق الخوف» كما كان يقول والدي، لأن هناك من يقف إلى جانب الفلاحين إذا تم الإعتداء عليهم. وصار الحوراني مضرب المثل في الشجاعة «لا يخاف الموت»، «أشجع من عنتر» «قبضاي، رِجَّال» إلخ، «وصادق ونزيه ووطني» ولأول مرة يسارع العديد من الناس إلى تسمية أولادهم بإسمه تيمناً به وحباً له.

وأُلّفت الأغاني و«العداويات».. وقيلت فيه القصائد الشعبية، وغنّاها الناس في الأعراس والموالد، وخلال المواسم. وكانت النساء تزغردن له في الأعراس، ويطلق الشباب الرصاص من

مسدساتهم تحية الأفراح والأعراس[٨].

وفي الجانب الآخر، أي في صفوف الملاك الكبار، وخصوم الحوراني بشكل عام، كان النقد شديداً لبرنامجه السياسي ومصحوباً بالوعيد والتهديد لكل من يناصره. ولكن «عرق الخوف طق» كما أشرت منذ قليل وانطلقت المسيرة، ولن يوقفها أحد حتى تصل إلى غاياتها المأمولة.

وكل يوم يمر على النشاط السياسي للحوراني في حماة، كانت شعبيته في ازدياد منقطع النظير. فكبرت قامته النضالية، وصار صاحب المقام الرفيع في وجدان الشارع الحموي. وفي الريف حدِّث ولا حرج. فقد كان الناس يتجمعون في المضافات لملاقاته ومصافحته، والهتاف له ولمبادئه وأهدافه السياسية.

وكانت حماة كغيرها من المدن السورية والعربية حافلة بالمقاومة الوطنية للاستعمار تتابع الأحداث بسرعة فائقة، وثمة صدامات يومية تجري هنا وهناك. وجنباً إلى جنب مع هذه الأحداث، على سعة مساحتها، كانت المبادىء والتيارات السياسية تتلاقى مرة وتتقاطع مرة أخرى.

---

(٨) لقد قمت بين عاميّ ١٩٦٢ و ١٩٦٥ بجمع عدد كبير من الأغاني و«العداويات» والأشعار الشعبية تمهيداً لدراستها حسب القواعد المنهجية للمأثورات الشعبية، والبحث عن محدداتها الثقافية والاجتماعية، واكتشاف القواسم المشتركة بينها، ومعرفة ما فيها من نزعات وتوجهات مجتمعية، وما تعكسه من وحدة وطنية ممثلة على نحو أو آخر في المعاناة والطموحات والرغبات الفردية والاجتماعية.

فالرياح الماركسية قادمة لا محالة من كل صوب، وممثلوها يجوبون الوطن العربي بحماسة فائقة، وأنصارها يتكاثرون تحت رايات الأحزاب الشيوعية التي فرضت عليها الظروف أن تنشأ تحت أسماء فيها تورية ومهادنة موقتة لتلك الظروف، وحقيقة يمليها الواقع العربي بكل ما فيه من صراعات إجتماعية وسياسية ووطنية وقومية وبالأخص صراع الأفكار.

أما الحركات القومية فقد ضربت هي الأخرى أطنابها في كل مكان من الوطن العربي، وتوزعت جمهورَها حركات وأحزابٌ قومية عدة في المشرق والمغرب، وثمة ثوابت وطنية وقومية تزكي هذه الأحزاب والحركات، وفي مقدمتها الشعور القومي العفوي السائد بين الناس داخل ما يجب أن يسميه البعض «العروبية».

في سورية، وغير بعيد عن حماة، كان ميشيل عفلق قد حقق خطوات إلى الأمام في تشكيل الفكر القومي وفق سنن ونواميس جديدة، ستتكشَّف لنا لاحقاً غداة الإعلان عن تأسيس البعث العربي الاشتراكي في ربيع عام ١٩٤٨، في اليوم السابع من نيسان من ذلك العام.

ولأول مرة يتم تلخيص مبادىء وأهداف الأمة العربية، في الوحدة والحرية والاشتراكية. وفق ناظم حضاري قومي يتمثل في شعار البعث: **أمة عربية واحدة * ذات رسالة خالدة**. وكذلك التبشير بجيل عربي ترى فيه الأمة نفسها، كما يجب أن تكون عليه في المستقبل. وستراهن مقالات عفلق العديدة على هذا الجيل، في مصير الأمة العربية، وسيكون الإسلام الرسالة الخالدة للأمة العربية،

لأن الإسلام كلّفها بدور حضاري لا تحيا إلا إذا أخذت به ومارسته على الساحة العالمية، ومثل الإسلام في أدبيات عفلق إنسانية الإنسان العربي، لأنه القاسم المشترك بينه وبينَ شعوب العالم[٩].

وحدث ما يجب أن يحدث على طريق النضال الوحدوي. وما حدث كان خطوة إلى الأمام. فقد عقدت عصبة العمل القومي مؤتمرها الأول في قرية «قرنايل» بلبنان عام ١٩٣٣، وأعلنت بيانها الذي يقول بوحدة الوطن العربي سياسياً واقتصادياً وثقافياً وروحياً، وأكدت فيه على النهج السياسي القومي الذي يعلي من شأن الأخلاق العربية. وسيادة العرب المطلقة على أراضيهم.

وكانت أهداف عصبة العمل القومي حقيقةً، المرجعَ الفكري والعقائدي لكل الأحزاب القومية، وخصوصاً حزب البعث العربي، والحزب العربي الاشتراكي.

وأظن أن وحدة المبادىء في الحزبين، وتشابه الأهداف والمنطلقات أتت من هذه المرجعية القومية أولاً، ومن تأثر الحوراني بدستور حزب البعث العربي ونظامه الداخلي. ولا ضير في ذلك لأن وحدة التلاقي بين الحزبين كانت كامنة بشكل أو بآخر في هذا التشابه في المبادىء والدستور. ولذلك فهي لم تأتِ من فراغ، أو حباً في التقليد، وإنما من نواميس وسنن تفرزها وتقررها خلال تاريخ طويل المشاعر والأحاسيس النفسية المشتركة، والتي تجد

---

(٩) يرجى الرجوع إلى كتابات عفلق عن العروبة والإسلام في كتابه «في سبيل البعث» وخصوصاً مقاله في ذكرى الرسول العربي الذي ألقاه عام ١٩٤٣ من على مدرج جامعة دمشق.

تعبيرها دائماً وأبداً في الفكر وتياراته واتجاهاته.

وفي الطرف الشرقي، وجنباً إلى جنب مع عصبة العمل القومي كان هناك في العراق «الحزب القومي العربي» الذي خطط لثورة رشيد عالي الكيلاني، وأَمَدَّها بالرجال والضباط[١٠]. وتشكلت قيادته القومية من أقطارٍ عربية عدة. وهم من رجالات الثورة العربية وقادتها، وخصوصاً جيل الشباب منهم.

وتتمثل المهمة المصيرية للحركات والأحزاب والجمعيات العربية استشراف المستقبل العربي بعد الغدر الذي لقيه الوطن العربي من الغرب. وتمثل المستقبل على نحو أو آخر، في إيجاد صيغة تنظيمية جماهيرية تنظم الجماهير وتقودها.

إذاً في هذه الأجواء العربية وما تحفل به من إرهاصات قومية وتقدمية بزغ اسم الحوراني غداة انتخابه نائباً في مجلس النواب عام ١٩٤٣.

واستمرت نجاحات الحوراني السياسية، فقد أصبح بحق وجهاً سياسياً يحسب حسابه في الساحات السياسية السورية وخصوصاً بعد نجاحه في انتخابات ١٩٤٧ التي أصبحت انتخابات مباشرة، فقام بتأسيس جريدة «اليقظة» التي كانت نافذته على الشارع السياسي السوري برمته، في الريف والمدن، وذلك في عام ١٩٤٦. وفيها

---

(١٠) يرجى الرجوع إلى كتاب جلال السيد: حزب البعث العربي ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٧٣ ص (٧٠ ـ ٧١) بشأن عصبة العمل القومي، والحزب القومي العربي.

بشَّر بمبادئه، وراح يبلورها في مقالاته العدد تلو الآخر. كما شرح فيها برنامجه الإنتخابي في انتخابات عام ١٩٤٧.

وتوَّج الحوراني نجاحاته بالذهاب إلى فلسطين ليقاتل جنباً إلى جنب مع العديد من السياسيين العرب. ومن هناك بعث برقيته ذائعة الصيت إلى مجلس النواب يشير فيها إلى أن وجوده كمقاتل ضد الصهاينة في فلسطين العربية أهم بكثير من وجوده في البرلمان. وتناقلها الناس في كل مكان، وكانت حديث الريف وبرهانه على وطنية الحوراني وشجاعته، وعدم شغفه بالحكم.

وروي لي أيضاً أنها كانت حجة لأنصاره في نقاشهم مع الآخرين لإقناعهم بدعم الحوراني والوقوف إلى جانبه. كما نقل إلي، أن البرقية لاقت وقعها بين رجالات السياسة. وقد سَمِعْتُ الأغاني عنها في قريتنا، وأذكر أن الشيخ طه الخطيب القادم من فلسطين، كان يرفع يديه بالدعاء للحوراني في بيتنا كلما جرى الحديث عن تلك البرقية، وكان خالد الهويس يفرح كثيراً لدعاء الشيخ طه.

وأذكر في هذه المناسبة أننا نحن طلاب المدارس آنذاك تظاهرنا كثيراً من أجل فلسطين والدفاع عن عروبتها، وهتفنا من أعماقنا ضد الإنكليز والصهاينة. وضد الخونة من الحكام العرب، وكُنَّا نجوب شوارع مدينة حماة متَّجهين إلى المحافظة، أو إلى أمكنة أخرى، نسمع الخطب التي يلقيها الخطباء من الطلبة أو من الأساتذة، أو من السياسيين، وكنَّا نرفع صوتنا عالياً بالهتاف للأبطال العرب الذين يحاربون في فلسطين. وأذكر أن الشارع الحموي تجاوب مع هذه

المظاهرات كثيراً وشارك فيها يوماً بعد يوم، وقد استمرت وقتاً طويلاً.

وأشهد أن كل الفئات والقوى السياسية شاركت في هذه المظاهرات، وكان حماسُهَا لا يقلّ عن بعضها بعضاً في شيء أبداً. لأن فلسطين في التحليل الأخير هي قضية كل الشارع السوري، بلا استثناء، وأذكر أن أساتذتنا ومدير المدرسة شاركوا معنا في أكثر من مظاهرة، وقادونا باتجاه دار الحكومة. وفي هذه المظاهرات تجسدت الوحدة الوطنية على أكمل وجه، دون أن تشوبها أية شائبة.

وعاد الحوراني من فلسطين مع صحبه واستقبلتهم المدينة بعد حين بالزغاريد والهتافات وإطلاق الرصاص وجاءته الوفود من مختلف الأحياء الشعبية والقرى مهنئة بسلامة العودة، ومعاهدة له على الكفاح. وشكّلت هذه العودة مدخله للانتقال من المحلية الوطنية إلى الفضاء القومي العربي.

أكرم الحوراني يؤسس حزب العربي الاشتراكي

عاد الحوراني، كما كان يروى عنه، محملاً بجرح العروبة المثخن في فلسطين، وحصول الصهاينة على اعتراف أكثر من دولة بكيانهم على الأراضي الفلسطينية، وكانت رائحة الخيانة تزكم الأنوف. وكثيرة هي الحكايات الشعبية التي كنا نسمعها عن هذه الخيانات مثل الأسلحة الفاسدة، وتخابر بعض الحكام العرب مع قادة العدو الصهيوني.

كانت الحسرة واضحة على وجوه الناس. وكان الحزن يعصف بكل جوارحنا نحن طلاب المدارس الابتدائية والإعدادية والثانويات، وكان الشارع الحموي مثلنا تماماً يحس بفداحة النكبة، حيث ترى الناس في الشوارع يتراكضون لسماع الأخبار، وما يستجد على الساحة الفلسطينية، ويقذفون بالشتائم أغلب الحكام العرب وقتئذ في أكثر من مكان ومقهى.

والمعروف أن النخب العسكرية التي قاتلت في فلسطين عادت محملة بأثقال النكبة والهزائم التي منيت بها الجيوش العربية.

واتُّخذت القرارات داخل النفوس بضرورة التغيير وزوال العوامل التي أفرزت الهزيمة وعلى رأسها الاستعمار والتجزئة والتخلف والفقر.

وكان حافز التغيير هو القاسم المشترك بين كل القوى العسكرية العربية التي قاتلت في فلسطين. وثمة تعبيرات قادمة في الشارع العربي على وجه العموم تبشر بالتغيير وتأذن به. حدث ذلك على وجه السرعة في دمشق، عندما قام حسني الزعيم بانقلابه في ٣٠/ ٣/ ١٩٤٩ تحت شعار الدفاع عن كرامة الجيش العربي السوري وسمعته الوطنية ووفاء لعروبة فلسطين.

وبغض النظر عما قيل آنذاك في الانقلاب، وما حُمِّل به، ثم المسارات التي سار بها من بعد، إلا أن هذا الانقلاب عبر عن إرادة التغيير المصادرة في خاتمة المطاف.

ولا أزال أذكر خالد الهويس عندما دخل مضافة عائلتنا مبشراً بأن أبا رشيد سيصبح وزيراً. وعندما استفسر منه عمي الحجيجي عن مصدر الخبر قال له بأنه سمع هذا الكلام في حماة من جماعة الحوراني. وقد بقيت كلمة وزير عالقة في ذهني مدة من الزمن، وأنا أسأل نفسي ما هو الوزير؟

وبعد وقت قصير من الانقلاب فُضَّت الشراكة بين الحوراني والزعيم، وعرف الناس سريعاً بهذا الأمر عندما عاد الحوراني إلى حماة على وجه السرعة، وكأنه كان يريد أن يضع جماهيره في الصورة القائمة هنا عن الوضعين السياسي والعسكري.

وبعد حوالى أربعة أشهر سقط حسني الزعيم بانقلاب قام به سامي الحناوي بتاريخ ١٤/ ٨/ ١٩٤٩ وتم الانقلاب الثاني تحت تَعِلاَّت كثيرة أبرزها طريقته في حكم البلاد، وقسوته على السياسيين، وفرضه منع التجول، ومصادرته الأسلحة، وزيادة

الضرائب، وتقليص المخصصات للعاملين في الجيش السوري. وبالإضافة إلى هذا وذاك إقدامه على جريمة شنعاء يمقتها الشعب السوري، وينظر إلى صاحبها نظرة مليئة بالاحتقار، وهي تسليم أنطون سعاده زعيم الحزب «السوري القومي» إلى الحكومة اللبنانية التي أقدمت على إعدامه فوراً.

وأذكر أنه في إحدى المظاهرات كان الطلبة يهتفون: «يا زعيم يا غدار، بدنا نشويك بالنار».

وللمرة الأولى يتسلم الحوراني وزارة العدل ولمدة لا تزيد على الشهرين، ثم يعود سريعاً إلى مواقع المعارضة، ويصبح تحت المراقبة، ثم يعود وزيراً للزراعة في وزارة هاشم الأتاسي الموقتة.

وكان استلام الحوراني لهذه الوزارة عرساً حقيقياً للريف، وكأن أحلامهم أصبحت قاب قوسين أو أدنى من التحقيق. وكثرت أحلامهم آنذاك. وحكت النساء تلك الأحلام على المصاطب والبيادر، وفي الحقول، وأثناء الحصاد، والكل ينتظر سماع الأخبار الطيبة التي تعتق الريف من الظلم والليل الحالك..

عمل الحوراني خلال تسلمه وزارة الزراعة على تحسين الوضع الزراعي في كافة القرى والأرياف وشتى أنحاء الوطن. وبادر بإنشاء أول مدرسة زراعية تدرس فن الزراعة وعلومها وتخرج الفنيين الزراعيين.

بعد أقل من شهر استقال الحوراني، وتوجّه إلى حماة متجولاً في أحيائها الشعبية، وقراها، مبشراً بعهد جديد يساهم في تحقيقه قانون الانتخابات الذي أقرّ آنذاك.

والملاحظ أن الحوراني أخذ يعطي القضايا القومية إهتماماً متزايداً مركِّزاً على قضية فلسطين في أحاديثه ومقابلاته الصحفية، وفي تصريحاته اليومية. وفي هذا السياق فقد عرف عنه مناهضته للوحدة بين سورية والعراق، خوفاً على استقلال سورية من الحكم الهاشمي في العراق. الذي يدين للإنكليز بالتبعية. وكان في موقفه هذا ينسجم مع مواقف الحزب الوطني الذي ناهض هذه الوحدة على عكس حزب الشعب الذي دعا إلى قيامها وتحقيقها.

إذاً، الحوراني لم يكن ضد الوحدة مع الشعب العراقي، وهو الذي مشى على أقدامه مسافات طويلة حتى يقاتل الإنكليز في صفوف ثورة رشيد عالي الكيلاني، على النحو الذي يدَّعيه خصومه، وإنما خوفه من امتداد النفوذ البريطاني إلى سورية دفعه إلى هذا الموقف.

وعندما كان الحوراني يُسأل من قبل السياسيين والباحثين حول موقفه من الوحدة السورية ـ العراقية تحت الحكم الهاشمي كان يؤكد على مسألة الخوف على استقلال سورية.

وأذكر أنه في صيف عام ١٩٧٠ أو ١٩٧١، وكنا نجلس معه في مقهى «الدولشيڤيتا» في منطقة رأس بيروت، وقريباً من «الروشة» سئُل من قِبل أحد الطلبة العرب عن أسباب رفضه لتلك الوحدة فأورد السبب نفسه. وعلَّق قائلاً لو كنا ندري أن الأمور ستصل إلى ما وصلت إليه الآن، لقبلنا الوحدة على مضض، لأنها أبقى من الأنظمة. قال ذلك مبتسماً ومتندراً على هذا الزمان وأهله.

وبعد حين، أي غداة الانقلاب الذي آلت سلطته إلى العقيد

أديب الشيشكلي. أُلِّفت وزارة برئاسة خالد العظم. واستلم فيها أكرم الحوراني وزارة الدفاع بناء على رغبة قطاعات كثيرة من الجيش السوري. فهو بالنسبة للجيش واسطة العقد مع السلطة السياسية، وخصوصاً رئيس الدولة هاشم الأتاسي، ورئيس الوزراء خالد العظم.

والجدير بالذكر أن مطالبة بعض القطع العسكرية بأن يكون الحوراني وزيراً للدفاع ليست وحدها وراء الاختيار، وإنما علاقاته الوطيدة مع الشيشكلي وقتذاك، وشعبيته الواسعة بين فئات الشعب، بما فيها الجنود وضباط الصف، باعتبار أن أغلب هؤلاء هم من الريف.

والمعروف عن الحوراني اهتمامه المبكر بالجيش. ومخططه الهادف إلى السيطرة التدريجية عليه لأنه حصن الأمان للسلامة الوطنية، وبالسيطرة عليه يستطيع أن يضمن سلامة الحكم واستمرار النظام الديمقراطي.

لذلك عمل الحوراني جاهداً على إدخال أكبر عدد ممكن من الحزبيين الطلاب إلى الكلية العسكرية. وهذا التوجيه كأن يأتينا بشكل غير مباشر. وبإيماءة من قبل بعض القيادات الحزبية.

والحوراني عندما وضع الجيش في دائرة اهتمامه الأولي، أدرك مبكراً من خلال اشتراكه في ثورة رشيد عالي الكيلاني، وقتاله على بطاح فلسطين، أن الجيش سيكون له الشأن الأول في الحياة السياسية السورية، وقد أراد أن يكون له قوته فيه ليضمن المحافظة

على السلامة الوطنية من جهة، ومنع أي قوة سياسية من التلاعب في الانتخابات.

وبعد حين ترك الحوراني وزارة الدفاع، وأخذت شقة الخلاف بينه وبين الشيشكلي تتسع تدريجياً بسبب جنوح الأخير نحو الحكم العسكري، واشتعلت تدريجياً المعركة بينهما، واضطر الحوراني إلى مغادرة الأراضي السورية.

لكنه قبل أن يغادر البلاد ترك حزباً قد نضج وقويت سواعده وصار له جمهوره العريض والواسع في سائر المحافظات السورية، علماً بأن هذا الحزب الذي تم تأسيسه في خريف عام ١٩٥٠ ولم يمض على تأسيسه إلا سنوات معدودة، أصبح يحسب حسابه من قبل كل الأحزاب.

ولا تفوتني بهذه المناسبة الإشارة إلى الاحتفال الجماهيري الحاشد الذي أقامه الحزب في حي جورة حوا في مدينة حماة. فقد جاءته الوفود من كل صوب، وزحف الريف إلى المدينة مشياً على الأقدام، أو ركب العربات الخشبية، أو السيارات الشاحنة، وغيرها من وسائل النقل المتوفرة آنذاك. وعندما وقف الحوراني خطيباً تعالت الهتافات باسمه وزغردت النساء له. وكان الحوراني يقاطع بالتصفيق والهتافات باسمه وبحياته.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت الوفود الحزبية تجوب الريف واستحدثت البطاقة الحزبية التي تمنح للحزبيين الذين ينتسبون إلى الحزب العربي الاشتراكي.

كانت قاعدة الحزب الإجتماعية مكونة من غالبية ريفية، من

ذوي الملكيات المتوسطة والصغيرة، ومن «العواطلية» الذين لا يملكون شيئاً إلا قوّتهم العضلية وجهدهم اليومي. وكانت هذه الفئة بحق الرئة التي يتنفس منها الحزب العربي الاشتراكي. وهي قاعدته الإنتخابية وصاحبة الشأن في قول كلمته في مجلس النواب، جنباً إلى جنب مع قاعدته في الجيش السوري، وهي التي توصله إلى مجلس النواب كل دورة انتخابية.

وإلى جانب هذه الشريحة الاجتماعية العريضة، توجد فئة الموظفين والطلاب وأصحاب الحوانيت، وبعض التجار الصغار ووجهاء الأسر في الأحياء الشعبية، وأصحاب المهن والحرف وعمال المواسم، وكان الطلاب القاعدة الفعالة على الساحة السياسية. فهم الذين يقومون بالمظاهرات بناء على أوامر الحزب، وهم الذين يطالبون بإسقاط هذه الحكومة أو تلك، ويندون بهذه الممارسات السياسية أو بذلك الموقف السياسي.

وتوجد في تركيبة الحزب الاجتماعية بعض النخب العسكرية من ضباط وصف ضباط وجنود. هذا بالإضافة إلى عدد من الأطباء والمهندسين والصيادلة والمحامين، وبعض أساتذة الجامعة، ونسبة لا بأس بها من المعلّمين، وأساتذة المدارس المتوسطة والثانوية، وبعض الأشخاص من أصحاب الملكيات الأكثر من متوسطة، وأقل من الكبيرة. وهذا معناه أن خارطة الحزب الاجتماعية مشكلة من أغلب الفئات والشرائح الاجتماعية التي يتشكل منها المجتمع العربي السوري.

أما برنامج الحزب العربي الاشتراكي، ونظامه الداخلي وسياسته

الداخلية والخارجية، وفروعه في المدن والقرى السورية، فقد كانت بمثابة جدول أعمال أو برنامج مؤتمر الحزب الذي عقد في دمشق خلال شهر آذار / مارس ١٩٥١ وأقرّها جميعاً على النحو المبين في أدبياته[١١].

والمعروف أن المبادىء الأساسية لدستور حزب العربي الاشتراكي أكدت مصادرة الملكيات الكبيرة وإعادة توزيعها على الفلاحين بموجب قانون الإصلاح الزراعي، واعتبرت الشعب مصدر السلطة والسيادة، كما أكدت حق المرأة في الانتخاب، وفرض التجنيد الإجباري من أجل بناء جيش وطني يملك كل مقومات الدفاع عن الوطن والعروبة. ونبه إلى ضرورة تأسيس الصناعات بكل فروعها ومستوياتها الممكنة. ودعا إلى إنشاء المزيد من المعاهد والمدارس الزراعية والفنية. وطالب بإلغاء الطائفية والمذهبية الدينية. وشجب النزعات العشائرية والقبلية.

وفيما يخص الوطن العربي، فقد أكد وحدة الوطن العربي، انطلاقاً من توفر كل مقومات الوحدة العربية مثل: اللغة، والتاريخ المشترك، والدين والحضارة، والثقافة، والروح المشتركة، ووحدة

---

(١١) يرجى الرجوع إلى الكتب والأطروحات عن حزب العربي الإشتراكي وحزب البعث العربي وعن أكرم الحوراني، وهي كثيرة مثل كتاب مصطفى الدندشلي بجزئيه، ونضال البعث العربي الاشتراكي، وتاريخ حزب البعث العربي الإشتراكي بأجزائه الثلاثة لشبلي العيسمي وكتابي «التحليل الاجتماعي لظاهرة الإنقسام السياسي في الوطن العربي ـ حزب البعث العربي الإشتراكي أنموذجاً» ـ دار مدبولي ـ القاهرة ـ ١٩٩٣.

الآمال والآلام، وأهمية الدور الحضاري الذي اضطلعت به الأمة العربية من قبل الإسلام.

وارتأى دستور حزب العربي الاشتراكي أن النظام الجمهوري الدستوري النيابي، هو الأصلح للشعب العربي السوري. ومن هذه القاعدة ركز على مبدأ الديمقراطية، ولذلك قال إن الشعب هو صاحب السلطة ومصدر السيادة.

كما نوَّه الدستور إلى مسألة ملكية وسائل الإنتاج دون أن تكون ملكاً للأمة، لأنها ليست أكثر من وظيفة اجتماعية انطلاقاً من أن العمل هو مصدر الثروة، وهو واجب على كل مواطن، وأن الدولة هي المسؤولة عن تأمين فرص العمل.

وتعرض الدستور إلى علاقات سورية الخارجية، فأكد استقلالها، وأن لا تقع تحت أي تأثير خارجي، ولذلك رفض فكرة الأحلاف العسكرية، والمعاهدات والنقاط الأجنبية. وأكد الالتزام بسياسة الحياد الإيجابي، لأنه ضمانة لإستقلال الشعوب.

أما النظام الداخلي فقد تكوّن من تسعة أبواب، أهمها ما يتعلق بأهداف الحزب الأساسية والمتمثلة بالتحرر السياسي والاقتصادي لسورية، والوطن العربي، والوحدة العربية، القائمة على أساس النظام الاقتصادي الاشتراكي. والعلاقات التنظيمية داخل الحزب. وشروط العضوية فيه من حيث الحقوق والواجبات، والترتيب القيادي، والمسألة التنظيمية، وما يتصل بها من محاكم حزبية والتحقيق مع الأعضاء.

وكان هدف الحوراني كما كنا نسمع منه في خطبه، أنه يريد

لحزبه أن يكون بوتقة لصهر أبناء الوطن، وتقوية الوحدة الوطنية، وترسيخ الإندماج الإجتماعي، والإرتقاء فوق الحساسيات والضغائن التي أثارها الحكم العثماني البغيض والحكم الفرنسي شديد القسوة في استغلاله ونهبه لخيرات سورية.

ويبدو لنا جلياً أن الحزب بالنسبة للحوراني، كما فهمنا من دستوره ونظامه الداخلي وخطبه، أنه ليس أكثر من وسيلة أو أداة نضالية شعبية لتقوية الوحدة الوطنية والقضاء على النزعات المذهبية والمحلية، التي نمت وتكاثرت بفعل عوامل عديدة أبرزها التخلف والجهل والاستعمار. والأيادي الأجنبية من إرساليات وغيرها كانت تشتغل بالخفاء تحت توجيه الماسونية الصهيونية.

ومن أجل تحقيق أهداف حزبه، عمل الحوراني بكل جهد مستطاع لحشد الجماهير الشعبية حول الحزب. فتوجه إلى الريف يلقي الكلمات، ويحدّث الناس هناك عن ضرورات النضال، مهاجماً ومندداً بالنزعات المعادية للفلاحين، مطالباً بوحدة القوى الشعبية وتضافر طاقاتها في المعركة.

كان الحوراني على معرفة تامة بأن ثمة نزعات انقسامية داخل المجتمع السوري مثل المحلية أو الجهوية والعشائرية والمذهبية، وأن استمرار هذه النزعات يخدم الأطراف المعادية للوحدة الوطنية والتقدم الاجتماعي، ولذلك عمل بكل جهده على تغليب نزعة الالتحام على نزعة الإنقسام داخل تلك العصبيات. وحث الجهاز الحزبي على ممارسة دوره في توحيد العصبيات العائلية والقبلية والجهوية والمذهبية ضد الملاك الكبار ومن في جعبتهم. وطالب

بخطبه وكلماته الحماسية بالوحدة الاَجتماعية بين الشرائح الإجتماعية التي تتكون منها بنية حزب العربي الاشتراكي، والتي رأى فيها شرطاً للتغلّب على الملاك الكبار. كما دعا إلى تجاوزها والإرتقاء إلى عصبية وطنية قوميةِ تقدمية توحد القوى الاجتماعية كافة صاحبة المصلحة الحقيقية في الوحدة الوطنية. ورأى أن ثمة قواسم مشتركة لعملية الانتقال من العصبيات المحلية والعشائرية والمذهبية إلى العصبية الوطنية، وثمة محددات مهمة حاضرة في تفكيره وذهنه ومبادىء حزبه مثل النظام الديمقراطي، وتوزيع الملكية، ومجانية التعليم، وربط الريف بالمدينة.

وقد نجح الحوراني في حشد الفلاحين وسكان الأحياء الشعبية والفئات المثقفة وراء أهدافه وشعاراته وهيَّأ الأجواء لنشوء عادات وتقاليد اجتماعية جديدة، فأخذت النَّعرة ضد الفلاحين تختفي تدريجياً، وبدأ التزاوج بين أبناء الطوائف والمذاهب يحدث في أكثر من مكان وجهة وقرية.

ولم تعد الإساءة إلى أبناء الريف أو الاعتداء عليهم في شوارع المدن عملاً سهلاً، أو يمر دون عقاب من قبل الجهاز الحزبي، والمؤيدين له. وإذا حدث أي اعتداء من هذا القبيل في أي جهة من جهات الريف، كان الجهاز الحزبي يسارع لنجدة الفلاحين والدفاع عنهم.

حدث ذلك في «عقرب» القرية القريبة من حماة. فسارع الحزب لنُصْرَة أهلها والذّود عنهم بالسلاح. وحدث مرة ثانية في قرية «أيَّو» أن جاءت الكتائب الحزبية المسلحة لنجدتها على وجه السرعة،

فقويت هيبة الفلاحين، وصارت جزءاً لا يتجزأ من هيبة الحزب وقياداته وقواعده. وكانت هذه الهيبة مدعومة بهيبة الجيش وقوته. وثمَّة مشاهد كثيرة تمثلت فيها مكانة أهل الريف وخصوصاً الاحتفالات التي أقامها «العربي الاشتراكي» في القرى. ثم الاحتفال الكبير الذي أقامه في جورة حوا، حيث أقيمت منصة في ساحة الحي، وحضرت «العراضات» من الأحياء، كل حي يتقدمه وجهاؤه، ويليهم الشباب، حيث يصعد بعضهم على أكتاف بعض، وتُرافق بعض هذه العراضات الطبول والمزامير ورمز الأحياء، والكل يهتف: أم النواعير تنادي وأكرم يا زعيم بلادي، وغيرها من الهتافات. وكل عراضة تأخذ مكانها المحدد لها من قبل اللجنة المنظمة، وأمامها رمزها ووجهاؤها.

ثم أعلن عن قدوم الوفود من الريف، وضجت الساحة بالهتافات. وعندما اكتملت الوفود صعد الحوراني المنصة ليلقي كلمته. وتعالت الهتافات بإسمه ودقت الطبول، وكثرت الأهازيج.

الفرحة تعم الناس جميعاً شيوخاً وشباباً ونساء، والكل يحيّي الحوراني. وعندما بدأ خطابه عَمَّ الهدوء والسكينة ساحة الاحتفال، تستمع إلى كلمات الحوراني وتفرح بما يقول. يقاطعه الجمهور ليصفق له ويهتف بحياته زعيماً وطنياً لا يبارى. وتلك كانت قناعاتنا به نحن جيل الشباب آنذاك، وتلك أيضاً عواطفنا وحماسنا له. بقي الناس في هذا الاحتفال حتى ساعة متأخرة من الليل وخصوصاً الوفود الفلاحية.

ويهدف هذا المشهد إلى إعطاء بعض الأمثلة عن طريقة الحزب

العربي الاشتراكي في التعبئة السياسية، وأسلوبه في تحقيق التقارب والاندماج والوحدة بين العصبيات، وتغليب نزعة الالتحام فيها على نزعة الإنقسام، كما أشرنا في أكثر من مكان من هذا الكتاب.

وإذا كان الحوراني يسير قدماً في تحقيق الوحدة الوطنية على هذا المنوال، فإنه كان يدرك إدراك العارفين بالأمر أن الصدام القادم بين حزبه والملاك الكبار واقع لا محالة.

وشهدت الساحة السورية صدامات عدة بين حزب الحوراني والملاك الكبار، ولم تعد الصدامات مقتصرة على حماة وإنما امتدت إلى إدلب وحلب والجزيرة وحمص ودمشق وحوران وجبل العرب، والجبل الغربي والغاب والساحل.

وفي البرلمان كانت للحوراني جولات وجولات. فهو تارة يثير قضايا الملكيات الكبيرة مطالباً بتوزيعها، وتارة يتكلم عن ضرورة إعادة النظر في العلاقات الزراعية بحيث تأتي التعديلات لصالح الفلاحين. وهو يطالب بفتح المدارس في الريف على أساس نظام التعليم المجاني، وفي البرلمان يساند القضية الفلسطينية ويقاوم ضغوط الحكم في العراق.

والحوراني إذ يتصدى بهذه العزيمة لتلك القضايا، فإنه يفعل ذلك، وظهره مستند إلى الجيش، فقد صارت له فيه عُزْوَةٌ كبيرة.

وأثمرت جهود الحوراني، فأخذ سكان القرى المملوكة للملاك الكبار يستردون كرامتهم المهانة، وتجلت الوحدة الوطنية في صور اجتماعية عدة، وتم النظر في العلاقات الزراعية، وكثرت الأقلام التي تكتب عن حقوق الفلاحين في الصحف والمجلات، وتندِّد بأي

اعتداء يقع عليهم، حتى أصبح الاعتداء صعباً ومكلفاً. ولم يعد «الفلاح إذا تعلم مثل الثور إذا تكدن» بل أضحى كسب ود الفلاحين في المدارس والجامعات مغرياً لأهله، وحقق أبناء الريف نجاحات في التعليم على اختلاف مستوياتهم، وبزغ منهم الشعراء والكتاب. ثم اشتدت المعركة بين الحزب العربي الاشتراكي والشيشكلي. وفي هذه الأثناء شهدت الساحة السورية معركةً مماثلة بين الشيشكلي وحزب البعث العربي، ولقاءَ الحوراني مع عفلق والبيطار في لبنان، وكثر الحوار بينهم من أجل وحدة الحزب العربي الاشتراكي، وحزب البعث العربي.

وأثناء ذلك زاد ضغط الشارع السوري على الشيشكلي بقيادة الحزبين، وعمّت المظاهرات المدن السورية وكثرت الاعتقالات حتى طالت كل القطاعات الطلابية والعمالية والموظفين وبعض أصحاب المهن والحوانيت. ومن لبنان كانت الأوامر والإشارات والمنشورات، تصل تباعاً. وكان الجهاز الحزبي يتفاعل بدقة وتنظيم شديدين.

وأذكر أن التوجيهات الحزبية كانت تحرِّضنا لتكثيف الضغط على السلطة واستفزازها لتقوم هذه بدورها باعتقال الناس وزجهم في السجون. ونجح التنظيم في هذه المهمة إذ كان المطلوب نقل المعركة إلى الريف. وتم للحزب ذلك. فقد شهدت قرى كثيرة الصراع بين حزب الشيشكلي «حركة التحرير» وحزب العربي الاشتراكي، وحزب البعث العربي.

وبضغط من الشيشكلي طلبت الحكومةُ اللبنانية من الأساتذة

أكرم وميشيل وصلاح مغادرة لبنان، وتم السفر إلى إيطاليا، وأقاموا هناك حوالى أربعة أشهر صَعَّدَ الحزبان فيها الصراع ضد السلطة، حتى بلغ أشدّه وأعنفه.

كانت الأحزاب الأخرى مثل الوطني والشعب والإتجاه الإسلامي والحزب الشيوعي شريكة في مناهضة الشيشكلي، ولكن المشاركة لم تكن على وتيرة واحدة، لأن الشيشكلي كان قد صبّ جامَ غضبه على الحزبين العربي الاشتراكي وحزب البعث. وله في ذلك دواعيه، فهو يعلم علم اليقين أنَ للحزبين قاعدة شعبية عريضة من الصعوبة بمكان تجاهلها أو كبحها. وهي المهيأة لمقاومة حكمه، وأن لهذه القاعدة إمتداداتها داخل الجيش السوري، وثمة مسألة لا يعرف عقباها في الجيش على حكم الشيشكلي، رغم تسريحه للعديد من الضباط المحسوبين على الحزبين. وكان الشيشكلي يأمل من صديق طفولته، وابن مدينته، وشريكه في الجهاد ضد الصهاينة، ومَنْ تجمعه به مستويات من قرابة النسب؛ أكرم الحوراني، أن لا يقف من حكمه هذا الموقف الحدِّي والمطالبة بعزله.

وكان الحوراني على معرفة بدواعي الشيشكلي، لذلك أعد للمعركة عدَّتها، واتخذ من الاحتياطات ومستويات التعبئة لجهازه الحزبي ما تفرضه هذه المعركة التي كان يقدِّر كل أبعادها ويحسب حسابها، فبادر إلى إقامة العديد من التحالفات مع الأحزاب الموجودة على الساحة السورية، وفي مقدمتها حزب البعث العربي، الذي تطورت العلاقة بينهما لاحقاً إلى حد الاندماج والوحدة، كما أسلفنا قبل قليل.

وأذعن الشيشكلي للضغط الشعبي الذي وصل إلى أوجه إثر انتخابه المُلفَّق رئيساً للجمهورية العربية السورية، والاستفتاء الذي رتَّبه وهندسه، من أجل الدستور الجديد، فأفرج عن المعتقلين.

شاهد حي لا بدّ أن يتوقف قليلاً عند هذا الحدث، مُرجئاً الحديث عن تنازلات الشيشكلي، لأن ما سأرويه فيه عبرة لمن يعتبر، وفيه دعوة من الأعماق لإعادة فن المعارضة إلى الشارع العربي، فهو وحده الذي يصحح الأمور، ويعيد السوية إلى النضال والكفاح، ويزيد من وَقْعِهِ في الحياة السياسية. وهو أيضاً صاحب الشأن في إيقاف التدهور الذي تشهده الحياة العربية في كل مستوياتها، وهو الذي يملك قوة المجابهة للهجمة الصهيونية ـ الامبريالية لأن كل ما عداه «ضحك على الذقون»، وانحدار نحو الفرقة والتمزق عربياً.

علمنا بإطلاق السجناء فخرجنا من «الفصول» نهتف بسقوط الشيشكلي. وفتحت أبواب المدارس أمامنا بعد أن أغلقت طويلاً، بحكم النظام المدرسي، وضغط الإدارة، ومرابطة الشرطة على أبواب المدارس، وانطلقنا إلى الشوارع نهتف ونحيي، والتقت المظاهرات الطلابية في ساحة المدينة، وصعد علي عدي إحدى الشرفات في العمارة المقابلة لسينما الأمير، ونزلت «الأحياء» تهتف للحوراني. ولم تعد الساحة تتسع للمتظاهرين، فامتد الناس في الشوارع المجاورة، وألقى علي عدي كلمة حماسية تحريضية تفاعل معها الجمهور.

ووصل بعض المعتقلين إلى الساحة، وحملهم الناس على

أكتافهم وأغرقوهم بالقبل، وبكينا جميعاً. شاهد حي يقول بعد خبرة طويلة في العمل السياسي، وإن كان حصاده مراً بالنسبة له: إن هذه الحشود الموجودة في ذلك الوقت كفيلة بأن تحقق فعلاً نضالياً تعجز عنه الملايين المهمشة والمصادرة من قبل أنظمتها بشرعيات مصطنعة لا أرض لها ولا سند يقف إلى جانبها، هذه القوة التي صنعت المعجزات من بعد، فأسقطت حلف بغداد، وأقامت نظاماً ديمقراطياً في سورية شكّل السبيل والممر إلى أكثرية شعبية في الشارع العربي، وقوة في البرلمان فرضت الوحدة بعد أن ساندت مصر في حربها ضد العدوان الثلاثي، وفجرت أنابيب النفط. ومنعت التعامل مع البواخر الإنكليزية والفرنسية، وناصرت ثورة الجزائر، وألزمت الأنظمة المحسوبة على الغرب بتقديم التنازلات لصالح القضايا العربية ومعركة المصير العربي، ورفرفت رايات العروبة خفاقة في كل مكان.

وكانت عقيدة البعث العربي الاشتراكي قوية مهاجمة، تقود المعارك العربية وتوجِّهها، وكان احترامها مفروضاً بسلامة الممارسات على امتداد الشارع العربي. وأعطت الفرص للتنظيم العسكري أن يحقق نجاحات عدة في استلام السلطة، وإن كان هذا النجاح سيتحول من بعد إلى إخفاقات كان مصابها أليماً وخصوصاً توالي الانقسامات في حزب البعث العربي الاشتراكي.

ويتبادل الناس التهاني في هذا الحشد الكبير، ثم توجه الناس إما إلى بيوتهم أو إلى المقاهي أو إلى مقر الحزب الذي أزيل عن بابه الشمع الأحمر.

وتوجهت أنا وصحبي باتجاه مقر الحزب، ووقفنا أمامه طويلاً؛ أقصد أنا وغازي مراد آغا وهشام المصري والتقينا هناك مع حسين عثمان ومأمون عثمان وفخري علوش وعبد الجبار شقفة وغيرهم وغيرهم. ثم ذهبنا إلى بيوتنا فرحين.

ووعد الشيشكلي بانتخابات حرة تخوضها الأحزاب جنباً إلى جنب، وبالمقابل حركة التحرير، حزب السلطة، الذي يحشد بداخله أكثرية من المنافقين، وأصحاب المصالح الخاصة، والانتهازيين.

وفي هذه الأثناء عاد الحوراني وصحبه إلى أرض الوطن، وخرجت المظاهرات من كل صوب، وعمت الفرحة بالنصر كل أنحاء القطر السوري.

شاهد حي تَنَقَّل بين حمص وحماة، وشاهد المظاهرات والاحتفالات وشارك فيها. إنها عرس الوطن بكل ما تعني هذه الكلمة من أنشطة وفعاليات وأفراح ودبكات، وإطلاق رصاص.

وعلى وجه السرعة عاودت الأجهزة الأمنية، على قلتها، الاعتقالات ودفع الشيشكلي أنصاره لاستفزاز الحزب. واغتنم بعض الملاك الكبار الفرصة لفرض هيمنتهم على الريف من جديد، فدفعوا أزلامهم للاعتداء على أنصار الحوراني. ووقعت اعتداءات عدة منها على سبيل المثال المشاجرة التي وقعت في قرية بسيرين بين جابر الأحمد أو الجرجنازي من جهة وعبد الرزاق دياب ومصطفى دياب وعبد الله الهويس من جهة ثانية.

وتحولت المشاجرة إلى معركة بالسلاح شملت سكان القرية

جميعاً، وأصيب فيها مصطفى دياب برصاصة في فخذه، تدخل على أثرها الدرك والجيش، وتم الاعتداء بالضرب والإهانة على وجهاء عائلة دياب وهويس، فرَّ على أساسها والدي وعمي محمد حمدو دياب، وخالد الهويس. وحاول عمي استخدام معارفه لكف يد الجيش عن القرية.

وفي اليوم الرابع لهذه المعركة تم استدعاء آل دياب والهويس إلى مقر حركة التحرير في حماة، وألزموهم بالقسم والولاء للشيشكلي. وأذكر أن والدي قال لي إنه أقسم بينه وبين نفسه بأن يظل خصماً للشيشكلي، ولذلك لم يرفع صوته بالقسم.

أروي هذه الحكاية لأقول إلى من يهمه الأمر أن الحوراني كسب الناس من خلال قدراتهم في التعبير عن إرادتهم حتى ولو كانت منقوصة بأولئك الذين يتحسسون من الريف من بعض أعضاء قيادته، هذه المجموعة التي كان لها الفضل في إحياء حدوثه ريف ومدينة، وكسبهم من خلال ثقتهم بأنفسهم وقدراتهم وشعورهم بأنهم مواطنون لا رعايا. ومن ثم مشاركتهم في النضال وجهاً لوجه دون أية وصاية أو إنابة من أحد. فالجماهير هي دائماً وأبداً صاحبة المبادرة التاريخية عندما تصل إلى سُدَّة القيادة.

وكان للحوراني أكثر من دور في فك قيد الريف، حتى صار من الصعوبة بمكان إعادة القيد إليه مرة أخرى، فالمسيرة مستمرة بكل نجاحاتها وإخفاقاتها ومآزقها.

وفي نهاية المطاف، جاءت اللحظة التاريخية الحاسمة لإسقاط الشيشكلي، فخرج البيان الأول من حلب بتاريخ ٢٤/ ٢/ ١٩٥٤ بأمر

من المقدم مصطفى حمدون ورفاقه من أعضاء حزب البعث العربي الإشتراكي، وأقرانهم من الضباط المستقلين.

وانصاع الشيشكلي بمرارة لمطالب الإنقلابيين، رافضاً بجرأة المواطن المسؤول أن يتصدى للانقلابيين بالسلاح خوفاً على وحدة الجيش، وسلامة الوطن. وغادر البلاد محمَّلاً بسنين من الخيبات والحكم العسكري الدكتاتوري، تاركاً للأجيال الحكم على وقفةٍ تحسب له على صفحات التاريخ لتكون درساً لمن يريد أن يتعلم أن الوطن فوق كل الاعتبارات، وأن السلطة في ضمير الأحرار لن تكون أبداً على حساب السلامة الوطنية، وذلك هو الناموس الذي يفرق بين الشر والخير، والوطني وضعيف الوطنية، إلخ. وبين أولئك حملة الفكر الظلامي، الذين خرجوا من أوكارهم يقتلون على الهوية في أكثر من بلد عربي وخصوصاً في لبنان الجبين العالي للوطن العربي. وليس صحيحاً بأن الشيشكلي خاف على عائلته وأهله في حماة، وأن الجيش سيطر عليه، إنه لا هذا ولا ذاك.. إنه موقف الرجل الذي تشبَّع بالوطنية في بيته ومع أقرانه، فرفض الانصياع لغرائز السلطة رغم كل أخطائه القاتلة في الحكم. وقال بأنه لن يسجِّل على نفسه بأنه قسَّم الجيش السوري.

الوحدة والاندماج بين
حزب البعث العربي والعربي الاشتراكي

أدت عوامل ومعطيات كثيرة إلى الوحدة والإندماج بين الحزبين؛ بعضها يسبق بالزمن التصادم مع نظام أديب الشيشكلي. ذلك أن الإجتهادات التي ترى أن المعركة الدائرة بين الحزبين من جهة وسلطة أديب الشيشكلي من جهة ثانية، هي وحدها كانت وراء التقارب، فيها الكثير من الإجحاف والمغالطة، والسبب الأقوى والأكثر فاعلية، حسب زعمنا، هو التشابه في الأهداف والمنطلقات والدستور إلى مستوى عال. وكما أشرنا فإن كليهما يعمل على تحقيق الوحدة العربية، والتحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والوصول إلى نظام اشتراكي يتمثل في تطبيق الإصلاح الزراعي وتأميم وسائل الإنتاج الكبيرة وجعلها ملكاً للدولة. وهناك أيضاً تشابه في الممارسة النضالية، مثل المشاركة في ثورة رشيد عالي الكيلاني، والجهاد في فلسطين، والقتال ضد الصهيونية العالمية دفاعاً عن عروبة فلسطين. إضافة إلى تشابه في نظرة القيادة في الحزبين إلى العديد من القضايا الوطنية والقومية، إلى حدٍّ لا تستطيع أن تفرق بينهما، مثل الموقف من المسألة الزراعية، والحكم

العسكري، ثم مواقفهما من قضية الوحدة العراقية ـ السورية في ظل الحكم الهاشمي في بغداد، والظاهرة الاستعمارية في أكثر من بلد عربي، وتضامنهما مع الشعب العربي في المغرب العربي والسودان والخليج العربي، ورفضهما فكرة الأحلاف العسكرية والنقاط الأمريكية.

إذاً، كانت مقاومة الحزبين المشتركة لنظام أديب الشيشكلي هي نتيجة للعوامل السابقة، وليس سبباً للوحدة بينهما. وإنّ ما تمّ من نضال مشترك بين الحزبين أنضج العوامل المؤدية إلى الوحدة السياسية والتنظيمية بينهما، وزاد من الأواصر النضالية بين قواعد حزب العربي الاشتراكي، وحزب البعث العربي.

وأذكر على سبيل المثال عن وحدة المبادىء والدستور في أدبيات الحزبين، أنه خلال دراستي في حمص في مدرسة عمر بن الخطاب تعرفت على طالب بعثي آنذاك، اسمه نواف طيارة، فأعطاني دستور البعث، وخلال قراءتي له وجدت كثيراً من التشابه بينه وبين دستور العربي الاشتراكي الذي كنت أحفظ مواده، وفقراته، وبنوده مثل حفظي للقصائد. وعندما كنت أتردد على منزل حيدر عبد الدايم وهو شقيق الدكتور عبد الله عبد الدايم على ما أعتقد، كنت أشعر بأن بيننا الكثير من أواصر القربى الفكرية والعقائدية، ولذلك وجدت نفسي بينهم كأني واحدٌ من البعثيين. وحقيقة الأمر أني شاركتهم الاجتماع في حلقة حزبية، ووجدت طريقة الأداء فيها، كما أزعم، تختلف في حزب البعث عن العربي الاشتراكي. في البعث تكتسب عادة القراءة، وتقوى عندك رغبة

التثقيفَ الذاتي، ويولد في ذهنك التفكير المنظم، والمنهجية العقلانية في مواجهة القضايا والأمور اليومية، بينما في العربي الاشتراكي تنمو ميولك الصدامية، وتكسب الجرأة في مواجهة خصومك السياسيين، وتتعلم الكرَّ والفرَّ في المشاجرات التي تقع بين الطلاب خلال المظاهرات، أو مع الأجهزة الأمنية.

وعندما أعلنت الوحدة بين الحزبين فرحنا بها كثيراً وغنَّيناً ورقصنا في الشوارع وفي مقر الحزب. غير أنها لم تضف إلينا شيئاً جديداً يستحق الذكر، اللهم إلا المحاضرات والندوات وقراءة مقالات الأستاذ عفلق وصلاح البيطار وجمال الأتاسي. فقد شهد فرع الحزب في حمص، وكان مقره آنذاك في شارع الدبلان، نشاطاً ثقافياً لم أشهده على الإطلاق في حماة، وأذكر على سبيل المثال، أن الدكتور بديع الكسم ألقى محاضرة في مقر الحزب في حمص، وكذلك الدكتور عبد الله عبد الدايم، كما كنا نكلّف بتلخيص الكتب وقراءة التلخيص في الاجتماعات الحزبية. هذا بالإضافة إلى مناقشة قضايا الساعة، على المستويين الوطني والقومي. وكذلك نشاط الأحزاب، وما تمّ من كسب مؤيدين جدد إلى الحزب في أوساط زملائنا الطلاب، وأمور تنظيمية أخرى وما يستجد من أحداث وقضايا.

غداة الانقلاب على أديب الشيشكلي بقيادة مصطفى حمدون في ٢٥/ ٢/ ١٩٥٤ سطع نجم «البعث العربي الاشتراكي»، وكبر مقامه في الشارع السوري والعربي، وزاد رصيده الجماهيري، وأصبح الشاب البعثي نموذجاً للوطنية والأخلاق وله مصداقيته في الشارع

بين العامة والخاصة، يكاد لا يماثله فيها إلا قلة من أقرانه. وصار الطالب البعثي مضرب المثل في الاجتهاد والنزاهة في السلوك، واستقامة في الأخلاق والشهامة.

لكن شيئاً واحداً لم يأخذ كل أبعاده، ولم يصل إلى حدوده المطلوبة، وخصوصاً في مدينة حماة، وهو، أن التنشئة السياسية والفكرية المطلوبة لخلق وحدة نفسية وفكرية وتنظيمية بين قواعد الحزبين لم تأخذ حقها بالكامل، بل بقيت منقوصة ومخترقة بظاهرة الإتّباع والإستزلام. وكأن هناك من كان يستشعر بأن الإنقسام بين الحزبين آت، مهما طال الزمن، وأن مجموعة التقسيم تراجعت قليلاً إلى الخلف لتحافظ على قواعد الحزب في حماة كما هي على حالها، وحرَّكت عناصرها هنا وهناك لتُبْقي الأمية الفكرية مهيمنة على شرائح كثيرة من قواعد الحزب، حتى إذا حلَّت ساعة الصفر تجد مجموعة التقسيم الفرصة أمامها لتلعب بعقول القواعد كما تشاء.

وكنا إذا طالبنا بتطبيق المسألة التنظيمية، واجهونا على الفور بالاستخفاف والتندر، وقالوا لنا لن ينفعنا كلامكم هذا لأننا بغنى عنه في مجتمعنا. وكنت شخصياً أشعر بالفرق في الثقافة والوعي الفكري بين حزب العربي الاشتراكي، وحزب البعث، فقد تطورتُ فكرياً بالنسبة إلى اقراني ممن كانوا ينتسبون إلى العربي الاشتراكي.

وأزعم أن الاختلاف في الثقافة السياسية، والتفاوت في نسبة الوعي العقائدي، كانا من الأسباب المهمة التي حالت دون الوحدة الحقيقية بين قاعدتي الحزبين، وقللت إمكانات الاندماج بينهما إلى

المستوى المطلوب الذي لا إنشقاق بعده.

هذا بالإضافة إلى نزعة الولاء السابقة على قرار الدمج. حيث ظل الولاء على حاله تقريباً قبل الوحدة، فبقي ولاء قواعد «العربي الاشتراكي» على الغالب للحوراني، والعكس صحيح في حزب البعث العربي، ما عدا قلة من هنا وقلة من هناك.

كما بقية العصبية الشللية تُغَذّي نزعة الإنقسام بين آونة وأخرى تحت مسميات كثيرة. كما ساهمت الإنحرافات والأخطاء بإضعاف عملية الدمج، وخصوصاً في الأشهر الأولى للوحدة، حيث تحول الحزب إلى قوة نابذة للعديد من أعضائه أو قواعده.

أما على مستوى القيادة، فالحقيقة أن هناك مدرستين فكريتين أو أكثر، وهناك طرائق في الأداء الحزبي واختلافات بينية وتنظيمية، وفي النظرة إلى دور الحزب وسبله إلى السلطة. وأخيراً وليس بآخر، هناك التنافس والمزاحمة والصراع على القيادة في الحزب ومؤسساته التنظيمية والسياسية. فكثيراً ما تسمع تصريحات مختلفة في المنهج والأداء والسياسة حول قضايا سياسية واجتماعية يومية بين كل من الحوراني وعفلق والبيطار وغيرهم وغيرهم. وإذا ما وضعت خارطة هذه الخلافات أمامك ورحت تستقرىء وتفسّرَ نتائجها فإنك ترى على الفور أن الإنقسام يتمّ بين لحظة وأخرى، وعلى هذه الشاكلة أو تلك داخل قواعد الحزب، وإطاره التنظيمي القيادي، وأن ما يسمّى بوحدة الحزب لم تكن في الغالب أكثر من اصطفاف وتعايش موقت، وأن نزعة الإنقسام كامنة فيه تنتظر شروط تغلبها على نزعة الإلتحام، حتى تحقق فعلها داخل قواعد الحزب. ورغم

كل ذلك فإن قرار وحدة الحزبين كانت له نتائج إيجابية، كما أسلفنا، تمثلت في قوة المواجهة لحكم أديب الشيشكلي والضغط الجماهيري على الأحزاب الأخرى لتتراجع عن غِيِّها في العديد من المسائل، مثل قضية الوحدة بين العراق وسورية، وقضية تهجير الفلاحين، وقانون العلاقات الزراعية، وقضية الأحلاف والمحاور السياسية، وساعدت على توسيع القاعدة الإنتخابية، ممّا أدى إلى زيادة عدد نواب حزب البعث العربي الاشتراكي، والكتلة المستقلّة المؤيدة له. كما عزَّزت الوحدة مكانة الضباط الحزبيين داخل الجيش، وسهَّلت دخول الطلبة الحزبيين الكلية العسكرية، ووجود رأي عام للحزب كان له شأنه في دعم سياسة الحزب، ومواقفه على الساحة السورية والعربية. والجدير بالذكر أن المبادرة التاريخية التي قام بها ضباط البعث العربي الاشتراكي بإسقاط حكم الشيشكلي وضعت الحزب أمام معطيات وأوضاع جديدة تمثلت في نشوة الإنتصار التي جعلت بعض الضباط يفكرون في استلام الحكم. لكن وللأمانة فقد كان للحوراني دوره الذي يسجل له في إقناع الضباط بالعودة إلى ثكناتهم والإنصياع إلى أوامر السلطة السياسية والمساعدة في تهيئة المناخ لإنتخابات برلمانية. كنا نحن شباب الحزب نرغب في استلام السلطة، ولقد تحمَّسنا كثيراً لها، وسخطت الكثرة، وأنا منهم، على الحوراني لأنه حال دون ذلك، وعمل الحوراني بكل جهد ممكن لعودة الحياة المدنية وترتيب أوراق الحزب حتى يتفرَّغ للإنتخابات الآتية على وجه السرعة.

وكان الحوراني أبعد نظراً في الإمتناع عن إستلام السلطة من

الكثيرين من قيادات الحزب، وأقوى إيماناً منهم بالنظام البرلماني طريقاً للحكم. وكان أكثر واقعية في إبعاد ضباط الجيش عن الحكم لأنه كان يريد منهم أن يصبحوا قوة في الجيش، تحافظ على الأمن الوطني بكل أبعاده ومضامينه، وتحول دون وقوع إنقلابات من قبل أي فئة من الفئات الطامحة إلى الحكم.

وخلال وجودنا في مقر الحزب أو مع أهلنا وزملائنا في الدراسة، أو في مقهى الروضة التي أصبحت بمثابة مقهى للحزبيين، وكان يطلق على المقهى «قهوة الحوارنة»، كُنَّا نسمع عن ممانعة الحوراني إستلام السلطة، وأنه قال لمصطفى حمدون أن يعود إلى ثكنته مع جنوده، كما سمعنا بأنه هدد عبد الغني قنوت بأنه سينتحر إذا لم يأخذ برأيه ويعود إلى الثكنة مع ضباطه وجنوده.

كان على الحوراني ترتيب أوراق عدة غداة الإطاحة بالشيشكلي أبرزها عودة الجيش إلى ثكناته. وتلا ذلك إعادة الضباط المسرَّحين في أثناء حكم الشيشكلي إلى الجيش، وقد لاقى مقاومة غير هينة تجاه ذلك من قبل حزب الشعب الوطني. أما الورقة الثالثة فقد تمثَّلت بجولاته في الريف وإقامة المهرجانات والإحتفالات وتهيئة الأجواء للإنتخابات.

ولا شكَّ أن ترتيب الأوراق السابقة يدخل في إطار إسهام أكرم الحوراني مع بقية القوى السياسية في ترتيب البيت السوري ترتيباً آمناً، وتصعيد الروح الشعبية والمبادرة التاريخية للشعب أمام الهجمة الخارجية الآتية من جهات عربية وتركية وإيرانية وصهيونية واستعمارية، والتي تستهدف أولاً وأخيراً الخط الوطني والقومي

الذي أصبحت سورية تمثّله على الساحة العربية والدولية والسورية. وكبر الحوراني بحق، وكبر الحزب معه، وكبر دور سورية القومي، وأصبحت سياستها تقلق الغرب والامبريالية الأمريكية. ولم يعد الحوراني على الإطلاق زعيماً محلياً في حماة فقط، بل أصبح من أركان القوة التي تقرر السياسة السورية، وصارت له شعبيته على المستوى العربي. يتردد إسمه وأخباره ومواقفه في الصحف، والإذاعات العربية، والعالمية. وتعددت الجهات العربية والأجنبية التي ترصد تحركه، وتتابع أخباره، وتحاول قياس شعبيته الوطنية والقومية. وفُتِحَتْ له ملفات في سفارات عربية وأجنبية عدة ليعرفوا عنه كل شيء. وَأُعِدَّت العُدَّة في أكثر من عاصمة عربية وأجنبية لضرب أهدافه وتوجهاته الوطنية والقومية، وإفساد مخططاته، وتفويت الفرص عليه.

وفي المقابل، أي على الضفة الأخرى، كثرت الجهات التي تقف إلى جانبه وتناصره، وتعددت القوى الوطنية والعربية والدولية التي تمدّ له يد العون وتؤازره، وأهم من هذا وذاك فقد أصبح الحوراني قطباً سياسياً بارزاً له جمهوره العربي. وسنعرف أن في زحمة همومه ونشاطه الحزبي والسياسي لم يغب عن باله الريفُ الذي كان يذهب إليه ليضمّد جراحه، ويواسي المنكوبين من أبنائه. واستقبله الريف بحماسة ومحبة، سواء في المهرجانات مثل مهرجان محردة، أو في جولاته، أو من ينوب عنه مثل استقبال عبد الكريم زهور في مهرجان الشيخ بدر.

وفي قريتنا بسيرين وقف خالد الهويس وأمين الدياب يهتفان:

«أهلا وسهلا باللي جاي، يا ميت هلا بللي جاي، وحنا رجالك بين إيديك» وأطلقنا النار أنا وعبد الله الهويس وعبد الرزاق دياب وحمدو الهويس، وقاسم دياب وغيرنا.

وهتفت النساء وزغردن وذبحن الخراف، ونزل الحوراني في بيت الشَّعْر الذي أُقِيم على بيدر عبد الكريم دياب، ورافق الحوراني مجموعةٌ مسلحةٌ منهم عوض التركاوي الذي اتُّهِمَ بقتل شرطي في باب البلد، وأشخاصٌ أعزاء، علّي نسيت أسماءهم، لكنّ وجوههم لا تزال ماثلة أمامي حتى هذه اللحظة. كما حضر معه عبد الكريم زهور «أبو حيّان» وسلّمنا عليه وحييناه. وألقى أبو ماجد خالد الهويس كلماتٍ شرح له فيها الضَيْمَ الذي واجهته القرية، وما فعل أنصار الشيشكلي، وكيف أن الجيش اعتدى على الناس بالضرب والإهانة، وعن فراره هو إلى حمص ليطلب مساعدة قريبه الضابط في الجيش والمحسوب على أديب الشيشكلي آنذاك، والملقب بمشهور على ما أعتقد. وأبلغه عن الاعتقالات، وكيف أن قائد الشرطة ألزمهم بالذهاب إلى مقر حركة التحرير والقَسَم بالولاء لأديب الشيشكلي.

وألقى عبد الكريم زهور كلمة أثارت حماسة الناس بِلُغَتِهِ الحلوة وفصاحته. وقام الحوراني وسط هالة من التصفيق والهتافات بحياته وإطلاق النار تحية له، وتَهَجَّمَ على الملاك الكبار، وأذكر أنه قال بأن عهد هؤلاء الطغاة قد انتهى إلى حيث لا رجعة، وأن اليد التي تمتد إلى الريف سنقطعها، وغربت شمس الإقطاع في بلادنا، وارتفعت رايات العزة والتقدم.. إلخ.

وكان خطابه يقاطع بالتصفيق والزغاريد والهتافات، ثم غادر القرية متوجهاً إلى تقسيس، ورافقه من رافقه من آل دياب والهويس وخلّوف دياب وبعض من حضر من القرى المجاورة مثل أيو، وتلقرطل، وبراق، والسويدة، وسكان المزارع والبساتين.

غادرها.. غادرنا تاركاً في نفوسنا التصميم على التغيير والتقدم. وكثرت تعليقات الأهل والأصحاب والجيران على شخص الحوراني. منهم من قال إنه أشبه بعمر بن الخطاب بالحزم والعدل. ومنهم من شبهه بعنترة بن شداد في الشجاعة والإقدام.

كان أبناء الريف يبحثون عن البطل، وعن فارس مجهول قادماً إليهم، يمتطون معه صهوات الجياد ويمتشقون السيوف، ويحاربون دفاعاً عن حقهم في الحياة وعن كرامتهم المهدورة.

وجد الريفُ أن البطلَ هو أكرم الحوراني الذي أنشد له الأناشيد، وغنَّى له الأشعار والقصائد، ونسج حوله الحكايات والأساطير التي تمجِّد بطولة الحوراني في العراق وفلسطين، ومِنْ قَبْلُ، وهو في مقتبل العمر، في شوارع حماة.

وكان حلمنا أن نصبح يوماً مثل أكرم. دمجناه في شخصنا بالأحلام والأماني. فإذا تحدثنا في مناقشة أو ألقينا كلمة، كنا نقلّد طريقة الحوراني في نطق الكلمات وتحريك الأيدي، دون أن نشعر. كل ذلك يأتينا من داخلنا بقوة اللاشعور. وأذكر بهذه المناسبة أن القرية أقامت احتفالاً شعبياً على بيادرها الشرقية، مكان المدرسة الآن، ضد الاجراءات التعسفية والقسوة التي كان يمارسها عبد الكريم قاسم ضد القوى التقدمية، وعلى رأسها حزب البعث،

واختارني الأهل والأصحاب، ومن بينهم خالد الهويس، لإلقاء كلمة في هذه المناسبة.

ألقيت الكلمة بحضور محافظ حماة ياسين الفرجاني، وكانت كلمة مؤثرة لاحظت خلالها أن والدي وعمي عبد الله، والحجيجي أبو مظهر، وخالد الهويس وغيرهم من الأقارب، يبكون فرحاً بي وحزناً على ما أوردته من حوادث قتل وتعذيب وتنكيل كانت تتم في العراق ضد مناضلي حزب البعث العربي الاشتراكي. وأوردت في الخطاب قصة شاب عراقي بقي في حماة أيّاماً عدّة للعلاج، وأذكر أن اسمه باسل، وكيف كانت آثار التعذيب بادية على جسمه.

أنهيت الكلمة، وفي داخلي صوت أو قوة أو مؤشرات، سمّها ما شئت، كانت تقول لي: هكذا كان الحوراني يحرك يده، وهكذا كان يتفاعل مع هذا الحدث، وبهذا الشكل كان يفتح ثغره وينطق الكلمات.

أريد من هذا كله أن أقول إن الريف وجد في الحوراني ضالته المنشودة. وجد البطل الذي يحارب معه الظلم والجهل والتخلف والتجزئة.

وبدأت المبادرة التاريخية هذه المرة تنطلق من الريف بسرعة من خلال وحدة الريف والمدينة، وحدة المظلومين والمضطهدين، وحدة الباحثين عن المستقبل المشرق الذي يدخله أبناء الريف من أبوابه العريضة.

ويستشرف الحوراني آفاق هذه المبادرة، ويدرك ببصيرة السياسي أن سورية بحاجة إلى عقد إجتماعي جديد يوحّد ولا يفرّق. يسجل

بداية مرحلة جديدة، لا عودة فيها إلى الوراء.

ونلاحظ من خلال مواقف الحوراني وخطبه وأحاديثه أنه يريد وحدة وطنية قوية متماسكة تشكل الفرص المفتوحة للأجيال الجديدة، وتحقق تكافؤ الفرص بشكل سليم ومعافى من أي إنحراف، فسارع إلى إنشاء جبهة وطنية تستوعب كل الأحزاب الوطنية، وتم تشكيل حكومة إئتلافية برئاسة صبري العسلي ضمت أعضاء من حزب الشعب والوطني، والمستقلين، واكتفى الحزب بأن يكون مراقباً لأنه كان يدرك أن ثمة هجمة رجعية قادمة عليه تحت دخان هذه الوزارة، على أمل أن تسترد الأحزاب التقليدية من خلالها مواقعها المفقودة.

وركز الحزب بتوجيه من الحوراني على التعبئة السياسية والتحريض الجماهيري من أجل الانتخابات القادمة. إنها فرصته الذهبية ليضاعف مقاعده في البرلمان، فمقاعده الخمسة لم تعد تقنعه أبداً، لأن شعبيته الواسعة أخذت تتكاثر بعد انقلاب ضباط البعث العربي على أديب الشيشكلي.

واستمرت الاستفزازات لإخراج ضباط البعث من ثكناتهم وتوريط حزبهم بحكم عسكري مكتوب عليه السقوط بعد حين. لكن الحزب، وخصوصاً أكرم الحوراني، عرف هذه اللعبة، وخبر غاياتها فأخذ احتياطاته، وزاد من مناعته من الوقوع في مصيدة استلام السلطة بانقلاب عسكري رداً على الاستفزازات.

واستفاد الحزب من أخطاء وزارة صبري العسلي وسخَّرها في حملته الانتخابية مثل قانون الصحافة الذي عدَّلته ليمكِّنَها من إغلاق

أي صحيفة، وإحياء القانون الذي يُمَكِّن وزير الدفاع من تسريح أي ضابط متى أراد.

وأثارت الأوضاع الاقتصادية والسياسية المتردية حفيظة الناس، وخرجت المظاهرات العمالية والطلابية تطالب بالإصلاح الاقتصادي، وتطوير القوانين والتشريعات التي تحترم مطالب الجماهير اليومية.

وأخذ الحوراني ينسج العقد الاجتماعي الجديد بانفتاحه على الأحزاب التقدمية والقوى المستقلة باعتبارها صاحبة المصلحة الحقيقية في خدمة مطالب الفلاحين والعمال والشرائح الاجتماعية الفقيرة، فأقام بعض التحالفات مع الحزب الشيوعي وخالد العظم ورئيف الملقي.

وتمت الانتخابات في شهر أيلول / سبتمبر سنة ١٩٥٤، وفاز حزب البعث العربي بـ «٢١» مقعداً، وأكثر من أربعة مقاعد مستقلة مؤيدة له.

ولكن هذا الفوز كان مُكْلِفاً، فاستنفرت كل القوى المضادة للحزب جهودها وطاقاتها لاحتوائه وعزله عن قواعده، وزادت حدة التعديات على الفلاحين في أكثر من جهة وشهدت الساحة الطلابية صدامات عدة بين حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب السوري القومي، وخصوصاً في أعقاب اغتيال عدنان المالكي.

وقد كانت المعارك بيننا وبينهم تتم يومياً داخل المدارس وفي الشوارع، ولا أزال أذكر هجومهم على المدرسة الإنجيلية في حمص بعد انصراف الطلاب، حيث رصد الحزب «القومي» بقاء

مجموعة من الطلاب الداخليين، أي الذين يقيمون في المدرسة وأغلبهم من محافظة حماة، من سلمية ومحردة والسقيلبيّة ومدينة حماة وبسيرين، كان عددهم لا يزيد عن ثمانية عشر طالباً. وكان مدير المدرسة نخلة كلاس، شقيق المحامي خليل كلاس نائب الحزب في حماة. وتم الهجوم بإطلاق الرصاص على مهجع الطلبة، وحاول أعضاء الحزب السوري القومي قتل نخلة كلاس، غير أن دفاع شباب البعث وبسالتهم حال دون ذلك وخصوصاً عبد الجبار الشقفة الذي استعمل مسدسه، وشابٌّ من سلمية لم أعد أذكر إسمه. ثمَّ جاءت الشرطة وفُضَّ الاشتباك. وبعد ثلاثة أيام من هذا الحادث قمنا بمتابعة السوريين القوميين وضربهم أينما التقيناهم وخصوصاً في شارع الدبلان، وتمكّنا من حرمانهم النزول إلى الشارع أو الذهاب إلى المدرسة فترة زمنية لا بأس بها. وأذكر أن (أبو النور) طيارة زجرنا في مرة من المرات لمنعنا بعض الطلاب من السوريين القوميين من المرور أمام مقر الحزب، وكان معنا وقتذاك نواف طيَّارة وخضر الشعَّار. وحدثت اشتباكات عدة في حماة بين الحزب والإخوان المسلمين، ووقع العديد من الجرحى من الجانبين.

وأُطْلِقَتْ الرصاصات الغادرة على مسيرة الحزب في حماة، حيث حشدت أعداداً غفيرة غطت مسافات طويلة تمتد أكثر من كيلو مترا على أقل تقدير باتجاه حي العليليات وحتى طلعة الدباغة، وإلى ساحة باب البلد.

كانت الجماهير محتشدة بصورة خاصة أمام مقر الحزب الذي

يقع أمام سينما حماة. وكانت ساعة الانطلاق قُرابة آذان العصر في ربيع عام ١٩٥٤ على ما أذكر(١٢).

وجاءت الطلقات في البداية من حي آل الوتّار من خلف مدرسة الأيتام، وأعتقد أنها تسمى طلعة أو تلة بيت الوتار.

أروي ذلك كشاهد حي. فقد كنت على شرفة المَقر ومعي صديقي آنذاك أحمد الجندي، وهبطنا إلى الشارع فوراً، وتزايد إطلاق النار فردّت قواعد الحزب المسلحة على النار بالمثل، وتعددت مصادر الإطلاق واتجهنا نحو باب الجسر. وأمام ساحة سوق الخيل علمنا أن واصل الحوراني شقيق وعضد أكرم الغالي، قُتل على يد إبن أخته غالب الشيشكلي. وقرب تلك الساحة كان الرصاص يأتينا من كل حَدْبٍ وصَوْب. وصدفة إلتقاني نسيبي سعيد الهنداوي أبو فواز ومعه ولده فواز وطلب مني الذهاب إلى البيت، فرفضت رغم إلحاحه وصراخه، ومحاولته حملي، رحمه الله.

ووصلنا إلى الشارع الذي استشهد فيه واصل. وهناك كثرت مصادر إطلاق الرصاص علينا. كان الرصاص غزيراً جداً وسمعنا في ذلك الوقت أن عوض التركاوي قتل، وكذلك زيد الحريري، وجاءت الإمدادات للحزب، ونزل السلاح إلى الشارع، وتدخلت الشرطة والجيش، وتبين لنا أن التركاوي والحريري أحياء.

وصعدت المظاهرة باتجاه منزل الحوراني، وتحول الاحتفال

---

(١٢) أتمنى أن يأتي الأستاذ أكرم الحوراني على ذكر هذه الأحداث في مذكراته حتى نتبين أسبابها ودوافعها المكشوفة وغير المكشوفة.

إلى مأتم كبير. . . بكينا جميعاً. واصل الحوراني الذي عرفناه شهماً وشيخاً للشباب. . . عندما كنا نلتقيه في الحزب كان يداعبنا ويحثنا على الدراسة. وعرفناه دائماً باللباس العربي فارساً، وزين الرجال.

وتفرق الناس، وسيطر الجيش على الشارع، ونامت المدينة مجروحة مهمومة، ونمت في تلك الليلة في بيت شقيقتي أم فواز. وعندما أخبرتها عن مقتل واصل الحوراني وابن أخته غالب، تأسفتْ كثيراً، وقالت: مسكينة أم غالب، فقد فقدت الأخ والإبن في وقت واحد.

وفي أعقاب ذلك ترددت الأصوات النشاز تطالب بفصل الريف عن المدينة. وكانت هذه المعركة الدامية لصالح الحزب فزادت شعبيته، وأثبتت قدرته على رد الإعتداء.

وزادت التحديات على حزب البعث، وتعددت مظاهرها وأدواتها. منها، على سبيل المثال: محاولة إعادة القوتلي إلى سورية ظناً من تلك القوى أن عودته ستكون على حساب البعث العربي الاشتراكي، لكن عودته لم تضف شيئاً لصالح تلك القوى، واستمر البعث في مهرجاناته واحتفالاته في سائر المدن والأرياف السورية.

وكبرت مسيرة البعث، وزادت قوتها وشعبيتها وحققت الإنتصار تلو الإنتصار. وثبت أن القافلة لن تعود إلى الوراء، ولن يجرؤ أحد بعد الآن على مهاجمة دار خالد الهويس في جنح الظلام لسرقة مواشيه، وإخافته حتى يعدل عن مواقفه، ولن يُسْحلَ مرة ثانية في باب الجسر، ولن يخاف المشي في شوارع حماة، بل سيأتيه خصومه إلى مضافة آل دياب، ملتقى كل من يحب الحوراني

ويكلمونه بأدب واحترام، وسينادونه لأول مرة بأبي ماجد دلالة على الاحترام، لأن خالد الهويس صار نداً لهم، وهم يأملون بصوته الانتخابي هو وصحبه وأقاربه من أهالي قرية بسيرين، بعد أن فشلت حماقة الاعتداء والتعالي.

وسيلتقي مع عبد الرحمن العظم، وعبد الله البرازي وفريد مرهج، وأديب منصور في تلك المضافة، وسيكلمهم بصوت عال، ويقول لهم باسم الجميع الكلمة الخاتمة: نحن مع أكرم حتى الموت، ولن ننتخب غيره، وإن كرامتنا من كرامته، وهو الذي ساعدنا على استعادتها.

ومن الإنتخابات التي جرت في مخفر القرية عندما كان مركزاً للإنتخابات، إلى مدرسة القرية التي تحولت إلى مركز جديد للإنتخابات حدثت تغيرات جمة لصالح الحزب، وأصبحنا نحن أبناء القرية نحرس صناديق الانتخابات، وسيكون والدي ممثلاً لأكرم الحوراني على الصندوق. وستكون الهيمنة كاملة لنا على الساحة الانتخابية في القرية، وستكون أغلب الأصوات لقائمة الحزب.

وبعد حين سيدخل رئيف الملقي في تحالف مع الحوراني، ويسمّي أحد الأيام بيوم «الشطيح». والمقصود بالشطيح القماش الأبيض الذي يضعه صانع الأحذية على صدره. وقد سماه وهو يلتقي ببعض القيادات الشابة من حزب البعث العربي الاشتراكي. ويلبس رئيف الملقي الشطيح في قهوة المرابط، ثم تحركت المظاهرة باتجاه الدباغة، ثم إلى المقر الذي يقع مقابل الشرطة العسكرية آنذاك بعد نزلة الدباغة نحو الغرب، وهناك يلقي رئيف

الملقي كلمة أخرى يحيي فيها التحالف مع الحوراني، وألقى المحامي الشاب البغدادي كلمة أثناء هذا اللقاء.

عدنا بعد ذلك إلى مقر الحزب الرئيسي، ونجح رئيف الملقي في قائمة الحزب الخضراء، ولو أنني أثناء هذه الانتخابات وقفت إلى جانب عدنان المأذوني مرشح الحزب الشيوعي حينذاك، بتأثير من صديقي الماركسي ضارب النول الذي أروي لكم قصته الآن حسب ما تبقى منها في الذاكرة، وقد مضى عليها حوالى (٤٣) سنة.

كان يناديني إلى غرفته المجاورة لغرفتي بحي باب تدمر. وكان يقوم بعمله على النول اليدوي ليل نهار بلا كلل أو ملل. وبعد جلوسي قربه كان يطلب مني قراءة الكتب التي يحضرها معه خصيصاً لأقرأها له. ثم يسألني هل فهمت شيئاً؟ فأجيبه دائماً بكلمة (لا) لأن تلك الكتب كانت فوق مستوى إمكاناتي الفكرية. فيعيد شرح ما قرأنا معاً، أحببت عدنان المازوني من خلاله.

وكان نجاح القائمة الخضراء للحزب إيذاناً بعهد جديد واستكمالاً للعقد الاجتماعي الجديد الذي أراده الحوراني ستاراً للحياة السورية، وسبيلاً إلى وحدة وطنية يتجانس فيها أبناء المجتمع بكل شرائحهم الاجتماعية، وتتعايش بداخلها ثقافاتهم الجهوية والمحلية والمذهبية وفق قاعدة الرأي والرأي الآخر والتعددية لتغني بذلك الحياة السورية. ويتقدم الناس خطوات إلى الأمام.

تلك كانت وجهة الحوراني وذلك كان هدفه.

وتقتضي الأمانة أن أقول إن الحوراني كان له الفضل في صياغة

قيم جديدة وإزالة قيم قديمة، وزاد ساحة الإقناع بصحتها وضرورتها للوحدة الوطنية، وذلك عندما أسقط القناعة بالاختلاف بين أهل الريف والمدينة، وحقق الانقطاع بين القيم التي كان الملاك الكبار يحاولون غرسها في وعي الناس بأن الفلاح أقل قيمة من أهل المدن، وأوجد قيماً بديلة تؤكد إمكانات الفلاح الخلاقة.

ولا شك أن هناك عوامل عدة ساهمت في هذا التضليل القيمي، وجعلت أولئك الناس الذين يغالطون أنفسهم بجهلهم وتخلفهم وأنانيتهم ودونيتهم يستسلمون لقوة الحقائق، ويتغنون بمعاكسة التاريخ، لأنهم أصلاً خارجه، وسيصبح إبن الريف من الأوائل وسيدخل الكليات العسكرية والجامعات، وستتسابق كبريات العائلات الحموية والحمصية والشامية والحلبية لخطبة هؤلاء الشباب إلى بناتهم. وفي مقدمة هذه العائلات أصحاب تلك الأصوات النشاز، ودعاة الفرقة مُنْشَدِّين إلى جهلهم وتخلفهم.

ويجب التأكيد بإنصاف أن من بين هؤلاء من كان ينظر إلى السلطة خارج الرؤية المستقبلية التي تريد وطناً قوياً تتوافر فيه كل مقومات الوحدة العربية والتقدم. وخارج السلامة الوطنية التي يلتقي فيها أبناء الشعب العربي السوري، وبعيداً عن الحياة المدنية والديمقراطية التي تشكل شرطاً لأي تغير نوعي سواء كان في مجال الإنسان أو الاقتصاد، أو العلاقات الاجتماعية.

وتلقى الحوراني الضربة الفاجعة الثانية والتي تمثلت في اغتيال عدنان المالكي، عينُه وسندُه في الجيش، وصمام الأمان في سلامة الجيش وتوازناته التي سهر عليها الحوراني حتى وصل إليها.

وفي وضح النهار أطلقت يد غاشمة وحاقدة وجاهلة النار على العقيد الشاب عدنان المالكي، وانتشر الخبر بسرعة البرق، وذهلت قواعد حزب البعث العربي الاشتراكي من الجريمة البشعة. لم تصدِّق الخبر في اللحظات الأولى. فقد كان عدنان المالكي نوَّارةً تفوح وطنية وقومية، وهو المثل الذي يحتذى به من قِبَلِ الجيل الذي يتطلع بعيونه نحو المستقبل، ويرى فيها سورية وقد تخطت منطق الصعوبة وقفزت إلى الأمام. وهو موضع أحاديث شباب البعث عندما يأتون في أحاديثهم على البطولة والرجولة والشهامة، وبُعْدِ النظر، والالتزام الوطني بأقصى شروط الوحدة الوطنية والقومية.

وخرجت المظاهرات في أكثر من مدينة سورية وهتف الجميع لعدنان الشهيد، وطالبوا بالضرب بيد من حديد على القَتَلَة، وظلت المظاهرات تتجدد اليوم بعد الآخر، حتى أفرغت قواعد الحزب وأنصاره وأصدقاء عدنان غضبها، وعرفنا أن الحزب السوري القومي كان وراء الجريمة، ووقعت صدامات عدة بين شباب البعث والسوري القومي، وخصوصاً في حمص ودمشق، أتيت على مشاهدَ منها منذ قليل.

وبَكَتْهُ قواعدُ الحزب، والقوى الوطنية، وأُطلق من أجله النار، وأقيمت له المآتم، وسمعت من خالد الهويس أن الحوراني حزن عليه أكثر من حزنه على شقيقه واصل.

وللتاريخ أروي هذه الحادثة، للأجيال الآتية والمستهدفة وهم في بطون أمهاتهم، من الداخل والخارج، والتي يُخَطَّط لقتل كل

إيجابيات تلك الأجيال وطاقاتها النضالية حتى تتمكن قوى الظلام والتجزئة والتخلف والإمبريالية العالمية والصهيونية من إعادة تكوين الوطن العربي على النحو الذي تريد، ووفق مصالحها ومخططاتها القاضية بمنع الوطن العربي من تحقيق وحدته واستكمال تحرره السياسي والاقتصادي والثقافي. أرويها لتكون مؤشراً على الفرق الشاسع بين قوة الإنتماء عند الأجيال التي عاشت تلك المرحلة والأجيال الراهنة التي دُجِّنت لصالح أمن السلطة.

والحكاية أني شاهدت والدي وخالد الهويس ونعسان السطوف يبكون على مُصدِّق رئيس وزراء إيران. وعندما دخل عليهم محمد ابن عمتي زينب استغرب الموقف وقال: خير إنشاء الله، فقال له نعسان السطوف، وكنا نسميه ماركس القرية: قتلوا مصدّق.

سأل محمد: ومن هذا مصدق يا خالي حسن؟ فقال له: رئيس وزراء إيران.

قال محمد: وما دخلنا بمصدق وإيران هذه؟

أجاب الوالد: هذا صديق العرب وضد الإستعمار واليهود وأن موته خسارة لنا نحن العرب.

وبكى خالد بقوة وبكى الجميع، وبكى معهم ابن عمتي محمد.

نسأل: ماذا يُبكي الأجيال الحالية من أبنائنا التي نشأت في ظل الحصار الفكري والسياسي وعمليات الإقصاء والتغييب في عموم أنحاء الوطن العربي؟

لم يُبْكِها مدرسة بحر البقر، ولا دك المقاومة الفلسطينية في

أيلول الأسود والأسمر والأحمر. واستقبلت دخول الغزاة الصهاينة إلى بيروت ببرود الأموات وحيادية الذي تعطلت فيه كل قواه وأحاسيسه.

ثم ماذا تبقى للأجيال القادمة لتبكي عليه وقد رأت العديد من حكام الوطن العربي يشيعون رابين ويبكون عليه؟!. ورابين هو قاتل الآلاف من أجدادهم والذي أهدر كرامة الوطن العربي على طول الحدود العربية أكثر من مرة، ودحر جيوش الأنظمة العربية على أكثر من جبهة، والآتي أعظم!

ورأيت والدي كذلك يبكي عدنان في أربعينه، ومعه أعمامى وخالد الهويس وعلي المعطي وبعض أبناء عمي وأقاربي.

وثمة مغزى لهذه الحكاية، وهي أن مرحلة الخمسينات من هذا القرن كانت تمثل العصر الذهبي لحزب البعث والحركة العربية، وكانت هذه المرحلة حافلة وزاخرة بالفرص للنهضة العربية. وكانت الحركة العربية في موقع الهجوم على أعدائها تتقدم من نصر إلى نصر، مثل القضاء على حلف بغداد، إلى النصر في معركة السويس، إلى الإنتصار في معركة الوحدة بين سوريا ومصر إلى إنتصار الأمة العربية في الجزائر.

لكن قوى الظلام والتزوير خرجت في ظلمة الليل تقتل الحلم العربي مرة تحت إسم الواقعية، ومرة أخرى تحت إسم التشدد في الإشتراكية، ومرة أخرى تحت اسم الوحدة المشروطة، ومرة أخرى وأخرى تحت أسماء وهمية لا تعني في آخر المطاف إلا القضاء على ما تبقى من إيجابيات في وجدان الأجيال القادمة.

وثمة مغزى آخر لها وهو أن تلك الأجيال التي كنا نظنها جاهلة وتقليدية ومحافظة، هي أكثر معرفة منا بأمور الوطن، وأعمق إيماناً بالعروبة والإسلام، وأشدّ أصالة؛ فهي تتقدمنا مسافات طويلة بالنضال وتزيدنا رؤية للتحديات والحاجات التي تواجه الوطن والأمة، اليوم والغد. وهي بذلك تكون متقدمة على الأجيال التي جاءت إلى البعث من بَعْد، بما فيها من سمي خطأ طليعته وقادته. ولذلك سبقت الأجيال اللاحقة في تجسيد النزعة الروحية التي تعتبر كلمة السر في حياة الأمة العربية من الأمس إلى اليوم. ومن اليوم إلى الغد. ونقصد بها المودة والمحبة التي سرت بين الأجيال والجهات والعائلات والطوائف والمذاهب، ونقصد بها أيضاً الحوار الإجتماعي غير المتوقف الباحث عن المستقبل الآمن الخَيِّر الواعد للوطن والأمة.

أكرم الحوراني من الوحدة
إلى الانفصال (١٩٥٨ ـ ١٩٦١)

وتستمر الكتابة عن أكرم الحوراني لتفصح عمّا في نفسي من خواطرَ تجاهه، ولترسم، قدر الإمكان، صورته في ذهني، فقد كان نبضه من نبضات الوجدان العربي، وأحد أشكال التجلّي لجيل طامح إلى خلاص الوطن العربي من الجهل والتخلف والتجزئة والإستعمار، وريث الصليبية بكل عدائها للأمة العربية ومعاكستها للنهضة العربية بكل الأسلحة والأساليب العدوانية، والإنتقاص الدائم للسيادة الوطنية ـ القومية في سائر الأقطار العربية، وذلك بإقامة دولة صهيونية في فلسطين بعد تلاقي مصالحها المتمثلة في الحيلولة دون الوحدة العربية، والحيلولة دون وصول هذه الأمة إلى ممارسة دورها الحضاري ومحاربة كل نزعة تقدمية، وترسيخ الإنقسام وتعميقه بين الأقطار العربية، وفي داخل كل قطر من هذه الأقطار.

إذاً، الكتابة عن الحوراني هي مبادرة ذاتية للوفاء بحق حدث وطني وقومي إسمه الحوراني، على أمل أن تظل هذه السيرة حية إستكمالاً وتواصلاً مع سيرة البطولة في الجزيرة العربية يوم واجهت طلائع الأمة الغزو الحبشي، وكرّ وفرّ خالد بن الوليد حتى استطاع

أن يحرر مع صحبه بلاد الشام من الروم، ثم يأتي أحفاده من العراق ومصر والمغرب لاستكمال عملية التحرير، لأن هذه الأمة لا تحيا إلا بالبطولة وبسيرة أبطالها. ويقتضي مني الواجب البحث عن هذه البطولة وتجسيدها وتناقلها من جيل إلى جيل حتى تستعيد الأمة روح المقاومة والجهاد.

وتريد الكتابة أن تقول كلمة حق عنه في زمن كثر فيه الباطل والغدر، وأصبحت قوى التزوير ترفع أعلامها هنا وهناك في أرجاء الوطن العربي، وخصوصاً في أعقاب الهجمة الأطلسية الجديدة، غداة انهيار الإتحاد السوفياتي، وتفكّك منظومة الدول الاشتراكية وتفرد الإمبريالية الأمريكية في الهيمنة على العالم، تحت غطاء مجلس الأمن والأمم المتحدة.

وهذه السيرة تريد أن تستكمل جوانب شخصية الحوراني السياسية والفكرية، وخصوصاً الفترة التي تمتد من الوحدة إلى الإنفصال إنطلاقاً من أن التاريخ مرآة للشعوب أفراداً وجماعات، والعمل الذي تنتج فيه حياتها، وتُكَوِّن بداخله شخصيتها الإجتماعية، والسيرة التي نسعى إليها تتجلى في حضوره على الساحة العربية خلال الفترة الممتدة من الوحدة إلى الإنفصال، وما عرفته من أحداث وتحديات داخلية وخارجية. بعد أن أفصحنا عن تحديات وأحداث سابقة، كان للحوراني حضوره فيها ومواجهته لها، سواء في حزب الشباب، أو العربي الاشتراكي، ومن بعد في حزب البعث العربي الاشتراكي، وقد قلنا ما يلزم قوله أثناء ذكرنا لها، ونحن ندرك إدراك العارفين بالأمر أن الكثير من الأحداث

الحزبية التي أتينا عليها نابعة من تركيبة الحزب الإجتماعية وعقلية أطره القيادية، وطابع الثقافة السائدة فيه، وهيمنة السياسة على الثقافة فيه، وخصوصاً نسقه الفكري، وجهل بعض كوادره بأدبياته جهلاً معيباً، وتزايد رقعة المفارقة بين السلوك والعمل، وخصوصاً مع الملامح الرئيسة لشخصية الجيل العربي الجديد، والتي رسم ملامحها بدقة متناهية ميشيل عفلق، وراهن عليها البعث العربي الاشتراكي في فكره النظري.

والملاحظ أن تلك الظواهر التنظيمية والثقافية قَوَّتْ في تنظيم الحزب نزعة الإنقسام، وحققت لها الغلبة. فتوزع لاحقاً ولاء القاعدة الحزبية الفكري والمبدئي، إلى ولاءات محلية أو جهوية، وعشائرية، ومذهبية، حتى باتت هذه الولاءات التقليدية المتخلفة سبباً للإقتتال بالسلاح بين الحزبين غداة استلامه السلطة في كل من العراق وسورية، ولاقى الكثيرون من أعضائه الإهانة والتعذيب والمحاربة في لقمة العيش من سلطة حزبهم، ما لم يلاقوه من أي سلطة أو حكم آخر، وعلى اختلاف أجنحته واتجاهاته.

ونعود مرة أخرى إلى مرحلة التحضير للوحدة السورية ـ المصرية، فنرى أن الحياة السورية شهدت عدة تحولات سياسية واقتصادية وثقافية هامة دفعتها قدماً إلى الأمام باتجاه استكمال تحررها السياسي والاقتصادي ودورها القومي، وستثير هذه الإنجازات الهامة عدوانية أوروبا الغربية ومعها الولايات المتحدة الأمريكية. وفي هذا الوقت يشتد التآمر على سورية للقضاء على حكمها الوطني وجبهتها الداخلية القوية، ويصبح التآمر عملية يومية

تمثلت في أشكال عدة، مثل الحشود التركية والاعتداءات الإسرائيلية ومحاولات ضم سورية إلى حلف بغداد، والعمل على إحداث إنقسام في الجيش عن طريق إنقلاب عسكري، وعمليات التجسس والتخابر الخارجي، وإثارة بعض النعرات المذهبية والجهوية. هذا بالإضافة إلى إعتداءات صهيونية، والإدعاء بأن سورية أصبحت في قبضة المعسكر الإشتراكي.

غير أن هذه الهجمات العدوانية باءت بالفشل بسبب قوة الوحدة الوطنية، وسلامة الجيش، وحضور البعث العربي الاشتراكي فيه، ونجاعة التعبئة السياسية التي جعلت كل مواطن خفير[١٣].

وشكلت الجبهة الوطنية المقاومة الشعبية المسلحة ولم تستثنِ أحداً، وإنما وزعت السلاح على كل المواطنين وإن كان حضور البعث العربي الإشتراكي فيها طاغياً.

وبدأ التدريب على السلاح يطبق في كل المؤسسات والقطاعات الشعبية والحكومية، وحفرت الخنادق وأخذ المواطنون يتناوبون السهر على أمن وطنهم.

إذاً، فقد تحوّلت سورية إلى قلعة وطنية وقومية وواجهة تقدمية لمواجهة العدوان الغربي ـ الصهيونى، وضرب آلياته ومرتكزاته،

---

(١٣) أعتقد أن هناك جمعية وطنية تحت إسم «جمعية كل مواطن خفير» التي شُكِّلَتْ في دمشق. وكانت مهمتها جعل المواطن في خدمة مجتمعه ووطنه، وخصوصاً الجانب الأمني. أي أمن الوطن. وهناك قصص عدة عن إسهام المواطن العادي في كشف بعض عمليات التجسس على الجيش السوري.

ليس على مستوى سورية فقط، وإنما في أكثر من بلد عربي.

والجدير بالملاحظة أن وسائل الرصد لما يجري في سورية من تحولات إقتصادية وسياسية وإجتماعية وثقافية تعدَّدت وتنوَّعت، فكثرت الدراسات الأكاديمية عن تلك التحولات في جامعات ومعاهد الغرب، والولايات المتحدة الأمريكية، وفي معاهد الإستشراق في منظومة الدول الإشتراكية المخترقة من قبل الصهيونية العالمية، مثل معهد الإستشراق في موسكو الذي تسيطر عليه وقتذاك مجموعة من الأكاديميين اليهود الصهاينة، ثم بواسطة السفارات والقنصليات والمدارس التبشيرية والجامعات والنقاط الأربع.

وترافق ذلك المستوى من العدوان على سورية مع أنشطة وفعاليات غربية ـ صهيونية لضرب المدّ القومي وتحجيم قواه الممتدة على الساحة العربية. وظهرت محاولات فكرية وثقافية وعقائدية لإرجاع القوى الشعبية إلى خلف قياداتها الحزبية، مرة تحت ستار العلمانية، ومرة أخرى تحت دعاوى رومانسية فكر حزب البعث العربي الإشتراكي أو التشهير بقدرة بعض قياداته، وخصوصاً عميده ميشيل عفلق. وذلك تمهيداً لتهميش القواعد وشل فاعلياتها السياسية حتى تصبح الأوضاع جاهزة لانفلات العقد الاجتماعي الجديد الذي كان للحوراني دور بارز في صياغته وتحقيقه.

ودقّت سورية أبواب شقيقتها مصر لتكون معها في خندق واحد، لأن مصر كانت قد خَطَتْ خطوات عملاقة في تجديد إقتصادها وسياستها وثقافتها، وحققت عدة تحولات عملاقة مسَّ جوهر البنية التحتية والبنية الإجتماعية غداة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢

بدءاً من الإصلاح الزراعي وتأميم قناة السويس، ومروراً بصفقة الأسلحة مع المعسكر الاشتراكي، وتمويل السد العالي، وتوسيع القاعدة الاقتصادية، ومجانية التعليم من المرحلة الإبتدائية، وحتى التعليم الجامعي، وتحضير وتعليم الريف وفكّ قيوده الإجتماعية والسياسية.

كما خَطَتْ سوريا خطوات هامة باتجاه دول عدم الإنحياز من خندق انفتاحها على الإتحاد السوفياتي، ومنظومة الدول الاشتراكية، والتي مثَّلتها صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا، فوجدت في هذه الدول نعم الحليف. وأخذ صلاح البيطار يهندس هذه العلاقة بهدوء واقتدار بشكل يرتفع إلى مستوى نضال شعوب هذه الدول ضد الاستعمار والتخلف والتبعية، باعتبار أن ذلك يمثل القواسم المشتركة بين الأمم المقهورة.

والجدير بالقول إن سورية عندما خَطَتْ بسياستها الخارجية هذا المنحى أو الاتجاه، وخصوصاً على المستوى القومي، كانت مدفوعة بقوة العروبة في وجدان شعبها الذي تعوَّد أن يقول دائماً: «العربي السوري»، وموجهة ومنقادة بأهداف الأمة العربية في التحرر والوحدة والإشتراكية، متطلعة بعيون مستقبلية إلى ممارسة الأمة العربية لدورها الحضاري الذي نهضت به منذ فترة ما قبل الإسلام.

إذاً، فإن سورية عندما اهتدت إلى هذه الوجهة السياسية والقومية والحضارية كانت مدفوعة أيضاً بدورها القيادي في معركة المصير العربي، وليس خوفاً من الحشود التركية. كما أدعى ذلك أصحاب المذاهب والمواقف القطرية، أو هروباً من المنازعات

والدسائس، أو تجنباً لسيطرة الحزب الشيوعي على مصير سورية على النحو الذي استنتجه بعض الباحثين الغربيين والأمريكيين، أو خوفاً من الإقتتال الداخلي. إنه لا هذا ولا ذاك. إنه بكل دقة انتصار العروبة في عقول الناس ووعيهم، وقوة المستقبل العربي في أذهانهم.

وهذا في رأينا هو الذي زاد من أواصر القربى بين مصر وسورية إلى الحد الذي أصبحت فيه الأبواب مفتوحة بينهما على إحتمالات عدة، تبدأ من التنسيق والتعاون والتحالف إلى الوحدة. وقد أدّت تلك المستويات من التعاون واللقاء إلى تقوية نزعة الالتحام القومي التي أفصحت عن ضرورات الوحدة بينهما على كل المستويات السياسية والعسكرية والإقتصادية والثقافية.

أما ما يقال عن الحشود واغتيال عدنان المالكي وهجمة الأحزاب التقليدية على حزب البعث العربي الاشتراكي فليست سوى دلالات ومؤشرات على إرهاصات الدور القومي الذي تجلّى في ممارسات الدولة السورية ونظامها السياسي، والتي أدت إلى قيام وحدة سورية ومصر التي عرفت باسم الجمهورية العربية المتحدة.

وقامت الوحدة على أنقاض حلف بغداد، والحشود التركية، والهجمة الرجعية على الحكم الوطني التقدمي الوحدوي.

ونزعم أن وصول الحوراني إلى رئاسة مجلس النواب كان أحد تجليات تلك الإرهاصات، ومؤشراً على قيام وحدة سورية ـ مصرية في القريب العاجل. كما أن نجاح الحزب في تنفيذ مخططه القاضي بتعبئة الشعب العربي السوري وراء شعاراته في التحرر والوحدة

والإشتراكية، ومعرفته الجيدة في التعامل مع حقائق الحياة السورية، مثل مسألة الملكية الزراعية، والنزاعات الوحدوية، وتطوير البناء الإجتماعي، وتقوية عوامل الإندماج الإجتماعي فيه، وفّر له إمكانات صياغة إستجابة عقلانية متكاملة وكافية للتحرك على الساحة الوطنية والقومية بنجاح فاق التصورّات والحسابات التي قامت بها بعض الجهات الداخلية والخارجية.

ولذلك فقد تحول إغتيال عدنان المالكي إلى انتصار للحزب في معاركه السياسية والإجتماعية والقومية وصار مؤهلاً لحكم سورية عن طريق النظام البرلماني، إلا أنه فضل الوحدة مع مصر، واعتبرها من أهم رهاناته.

أما في مصر، فقد كانت الطليعة البعثية هناك تراقب ما يجري على الساحة المصرية من تحولات اقتصادية واجتماعية وسياسية، وتقوم على أساس ذلك بصياغة استجاباتها القومية. شهدتها واستهوتها تلك التحولات، واعتبرتها خطوات تقدمية إلى الأمام، وفاتحة لعهد جديد واعد بإمكانات التقدم في الحياة المصرية على كل الجهات والمستويات. لكنها، أي تلك الطليعة، لا تريد التضحية بحزبها لاقتناعها بأن التعددية السياسية هي ضمانة تلك التحولات وقطارها الذي تعبر به إلى الأمام. غير أن حزب البعث العربي الاشتراكي، آثر الوحدة مدفوعاً بقوة هذا الهدف في فكره وتنظيمه، فقبل بحلّ نفسه استجابة لشروط عبد الناصر.

وسيكون الحلّ مدعاة لنشوء تيار غاضب بداخل الحزب حمّل الأساتذة الثلاثة: أكرم الحوراني، وميشيل عفلق، وصلاح البيطار،

ما جرى للبعث خلال الوحدة، وما تمخّض عن ذلك من نكسات على الساحة القومية، وخصوصاً الإنفصال الذي سيقع بعد حين. وكان قرار الطليعة البعثية المصرية ترك العمل الحزبي والإنخراط في مشاغل الحياة اليومية بحثاً عن مواقع تتكافأ مع إمكاناتهم وتطلعاتهم. ومنهم من رحل إلى الخارج بقصد الدراسة. وبعضهم ذهب إلى سورية ليكون قريباً من قيادة الحزب، وما تبقّى إنخرط في مهام حكومية، أو انصرف إلى عمله الخاص، وبدّل بعضهم لونه تدريجياً.

وفي قطار البعث العربي الإشتراكي عَبَرَ الحوراني إلى الرأي العام العربي، وصار نجماً قومياً وسياسياً في نظر أكثر قواعد الأحزاب القومية، والشارع العربي بشكل عام.

وأنجزت الوفود المسافرة، بين القاهرة ودمشق، الوحدةَ السورية ـ المصرية، وأُعلِنَ قيامُ الجمهورية العربية المتحدة وعاصمتها القاهرة في ١/ ٢/ ١٩٥٨.

واحتل الحوراني موقعاً قيادياً في سلّم التشكيل القيادي لنظام الحكم الجديد، فقد اختير ليكون نائباً للرئيس جمال عبد الناصر. وفي وزارة الوحدة، كما كان يسمِّيها الناس، كان لحزب البعث العربي الاشتراكي نصيب الأسد، حيث أعطيت له خمس وزارات: صلاح البيطار، عبد الغني قنّوت، مصطفى حمدون، خليل كلاس، رياض المالكي.

أثبتت الوحدة حقائق كثيرة فيها إجابات على كل الإدعاءات التي تقول بأن سورية أرادت الوحدة لخوفها من الحشود. وهذه الحقائق

كانت تملك قوة الأشياء على الساحة العربية، وفي مقدمتها أن الوحدة العربية حقيقة كامنة في نفوس الناس ولها نسقها من المقومات. كما أن وجود الكيان الصهيوني في فلسطين لم يتمكّن من الفصل بين مشرق الوطن العربي ومغربه، وأن بإمكان الحركة القومية أن تحقق إنجازات وحدوية عدة إذا عادت إلى نقطة البداية، يوم كانت الجماهير صاحبة القرار والمبادرة التاريخية، ويوم كانت الوطنية هي العروبة، والعروبة هي الوطنية، ويوم كان إقليم القاعدة هو الإقليم الذي يملك فيه الشعب قراره وحقه في القول والفصل، وأن الزعامة تتحدد في قدرتها على مواكبة الجماهير وليس العكس.

غير أن التعاون والتحالف بين عبد الناصر والبعث لم يصمد طويلاً، فتصدعت الجبهة الجامعة لهما، وغادر الحوراني القاهرة إلى منطقة كسب، واستقال وزراء البعث ومن في معيَّتهم. إذ لم يعد الخلاف بين عبد الناصر والبعث محصوراً في الغرف المغلقة، بل عرف به الشارع العربي. لكنّ الإستقالة فاجأت الناس في كل مكان، وهزَّت الكثير من القناعات، وأثارت العديد من الأسئلة، وبات الشارع العربي يترقّب النتائج بحذر وخوف. الكل لا يعرف إلى أين ستؤول الأمور. غير أن إحساساً داخلياً كان يختلج في النفس، وكأن الوحدة سائرة إلى حتفها.

دخلت أجهزة الإعلام طرفاً رئيساً في معركة عبد الناصر مع البعث، فخُصِّص الكثيرُ من البرامج والتعليقات، وأُعِدَّتْ الصحفُ ليكون فيها صفحات مخصصة للهجوم على البعث وفكره وسياسته، وتطوّعت أقلامٌ كثيرة للمشاركة في هذه الهجمة كان على رأسها دعاة

الإستسلام والمتنكرين للعروبة والوحدة العربية الآن، والضالعين في زيادة الفجوة بين عبد الناصر والبعث، وبعضهم الآن أعضاء في اللوبي الصهيوني في أكثر من بلدٍ عربي، وخصوصاً أولئك الذين يعلنون كرههم للشعب العربي السوري، ولقوة العروبة فيه.

وتمّ نقل الضباط البعثيين، إما إلى القاهرة وسيناء، أو إلى السلك الخارجي، وسرّحت أعداد غير قليلة منهم، وحولوا إلى وظائف مدنية.

وترافق أو تزامن ذلك مع اشتداد القبضة الأمنية في سورية، فكثرت مكاتبها وجهاتها، ومهماتها، وبدأت باعتقال بعض البعثيين، أو الضغط على قواعده للإنسحاب من حزبهم، بعد إتهامه بأبشع الاتهامات وأكثرها قسوة. وكان ردّ البعث على ذلك إشهار الأخطاء والإجراءات التعسفية التي يقوم بها النظام، وساهم بتضخيم بعضها. وأثار المتشنجون من أعضاء الحزب النزعة القطرية تحت دعاوى باطلة جملة وتفصيلاً، وتُناقض فكر البعث، وتفترق مع توجهه القومي الوحدوي.

ولم يقتصر عبد الناصر في التهجم على حزب البعث وقياداته، وإنما شمل هذا الهجوم قواعده عندما قال في خطابه بمدينة اللاذقية بأنه سيدوسهم بالأقدام.

وأُغلِقَتْ أبوابُ الكليات أمام من كان له أي صلة بحزب البعث، وحُرِمَ الكثيرون منهم من المنح الدراسية. وكانت التصرفات من الطرفين بمثابة مطرقة فولاذية حفرت ثقوباً كبيرة في جدار الوحدة الوطنية السورية، وأضعفت مناعة الحكم، وشيّدت الجسور

لتعبر عليها القوى المعادية والمضادة للوحدة، ولتضرب ضربتها في يوم ١٩٦١/٩/٢٨ على يد نفرٍ من الضباط، كان البعث قد قلَّص مهامهم في الجيش، وعهد إلى بعضهم بأعمال مكتبية، وأعادهم المشير عامر إلى الجيش، وسلَّم بعضهم مواقع قيادية. هذا بالإضافة إلى بعض المدنيين الذين اعتلوا عرش العديد من المناصب السيادية في الإتحاد القومي.

أما البعث، فقد دبت فيه الخلافات حول الموقف من الوحدة ثم الانفصال، وانتابت قواعده الفوضى وتعذَّر الأداء الجيد، وتباينت المواقف بين مؤيد للإنفصال وبين مستنكرٍ له. ولم يعد للتنظيم الحزبي أي دور أو وظيفة، لأن حلَّ الحزب جعل قواعده في حلّ من هذه المسألة. ونتيجة لذلك، حدثت فيه انقسامات عدة كان أكبرها الإنقسام الذي شقّ الحزب إلى حزبين. حزب البعث العربي الاشتراكي بقيادته القومية وأمينها العام ميشيل عفلق، والاشتراكيون العرب وعلى رأسهم أكرم الحوراني.

إذاً، عادت العصبيات الحزبية إلى ينابيعها وجذورها العقائدية الأولى، أيام كان هناك حزب العربي الاشتراكي، وحزب البعث العربي، فأخذ الحوراني كل قواعده تقريباً عدا قلَّة قليلة من المثقفين، وكأن الوحدة لم تقم بين حزب البعث العربي والعربي الإشتراكي. وهذا يعود إلى عوامل كثيرة أبرزها أن عملية الاندماج الفكري والسياسي والعقائدي لم تأخذ كامل أبعادها، وكأن هناك قوى حزبية كانت حريصة أن تبقى قواعد الحزب متصافقة لا أكثر ولا أقل، مهيأة إلى التباعد عندما تحين اللحظات المناسبة، مقرونة

بشروطها الموضوعية والذاتية.

وهذا معناه أن نزعة الانقسام تغلبت على نزعة الالتحام داخل قواعد الحزب، وانفرط العقد الإجتماعي الجديد الذي ساهم الحوراني في صياغته وبناء شبكته الإجتماعية بعد سهر وعناء طويلين.

وزادت الانقسامات حدّة بعد التوقيع على وثيقة الإنفصال من قبل الحوراني وتبودلت الاتهامات المكتوبة والشفهية. وزادت القطيعة بعد مؤتمر شتورا الذي مثًّلت مشاركة جماعة الحوراني فيه الغلطة الثانية القاتلة، بعد غلطة التوقيع على وثيقة الانفصال.

ومع ذلك فقد كانت في الحزب قوى توحيدية حاولت جاهدة تحقيق المصالحة بين الأساتذة الثلاثة: أكرم وميشيل وصلاح، وأنا منهم، ولكن كما يقال سبق السيف العذل، ومضى كل فريق في طريقه. وكانت هناك قوى في الطرفين تغذّي الفرقة والانقسام لتقضي على آخر الآمال من أجل أن يكون الإنشقاق سُنَّة غالبة.

وكان الرابح الوحيد من هذه الخلافات والإنقسامات ومن فشل التجربة السياسية للوحدة أعداء الوحدة والتقدم والنهضة العربية، ومعهم الصهيونية العالمية، والإمبريالية الأمريكية، والأعداء التاريخيين للأمة العربية ورثة الصليبية في أوروبا الغربية، وأعوانهم من الطابور الخامس في الوطن العربي.

وارتاحت لهذه الردة، بعض القوى الوطنية للأسف الشديد، وعلى رأسها الحزب الشيوعي السوري تحت تأويلات الواقعية والموضوعية. وظنّي أن الجذور الشعوبية لبعض قياداته، وانقيادهم

التام للأوامر الصادرة إليهم عن الكرملين الذي اخترقته قوى التقسيم والردة، كان لها دورها في مناهضة الوحدة. وليسامحني أصدقائي من الحزب الشيوعي على رأيي هذا، فقد أفصحت عنه في نقاشات كثيرة معهم، مع كل تقديري لخطابهم آنذاك.

والخلاصة، فإن الوحدة لم تفشل، وإنما فشلت القوى التي ادعت أنها حاملة لواءها في سورية ومصر، والأخطاء التي سمّوها ظلماً أخطاء الوحدة، هي أخطاؤهم جميعاً بلا استثناء. والوحدة باقية في ضمير الشعب العربي في المشرق والمغرب. وثمة شواهد حديثة ومعاصرة، لو استرجعناها على وجه السرعة لوجدنا أن الوحدة قوية وواعية في ضمير الشعب العربي وواعدة في آن واحد. ولذلك فلمّا عاد الشعب إلى موقع القيادة في العمل السياسي في لحظات وأحداث تمّت هنا وهناك، فإنه بادر إلى المطالبة بالوحدة والتضامن العربي، والعمل المشترك. غير أن القوى الانفصالية كانت لها الغلبة.

لذلك كان الحوراني من صُنّاع الوحدة، وتحوّل إلى ضحيّة من ضحاياها، عندما تفوقت في ممارساته ردود الفعل وعالج الأمور بحساسية شخصية. ومع ذلك، فإن الحوراني لم يكن إنفصالياً أكثر من غيره، وخصوصاً أولئك الذين توجهوا إلى القاهرة لإقامة الوحدة الثلاثية، ولكنه لم يرتدِ أقنعة الوحدة على غرار غيره، ليذهب بعيداً في مناصرة الانفصال. غير أن مناصرته للإنفصال لم تكن ضد الوحدة بقدر ما كانت ضد تصرفات عبد الناصر تجاه الحوراني، ومع ذلك تُحْسَبُ عليه سواء شاء أم أبى.

وبقي أن نقول إننا نحن الجيل الذي تزامن وجوده مع صعود الحوراني والبعث العربي الإشتراكي، ظللنا نحلم بأن يستطيع أكرم الحوراني، رجل الحزب القوي وصاحب البصيرة السياسية التي تجعله يرى الحدث في زمانه ومكانه. ويستشرف بدقة حركته، أن يكتشف الوعي في شخص عفلق، الذي يملك قدرات فكرية عملاقة مستكشِفة ومستبصِرة لقضايا الشعب وأهدافه. ذلك الوعي الذي جعله يرى العلاقة العضوية بين الإسلام والعروبة رؤية حضارية وقومية لم يَرَها غيره على النحو الذي رآها عليه، وأعطى الأولوية للوحدة، لما في الوحدة من فوائد لا تحصى للشعب العربي. وهو، أي عفلق، صاحب مشروع قومي له ثوابته ومحدداته، وزمانه وإنسانه العربي الجديد.

لكن هذا الحلم لم يتحقق!

كما فاتت الحزب فرصة تنشئة جيل عربي جديد، يأخذ على عاتقه إنجاز أهدافه في الوحدة والحرية والإشتراكية.

الحوراني في المنفى

لاحظنا أن فشل تجربة الوحدة السورية ـ المصرية سيُلْقي بظلاله على تنظيم البعث في الأقطار العربية كافة، وعلى وجه الخصوص في كل من العراق وسورية والأردن، بحكم دور قيادات الحزب في هذه الأقطار في القرار الصادر عن القيادة القومية بشأن الإنفصال، والموقف من الرئيس عبد الناصر، ثم الموقف من تجربة الوحدة المصرية ـ السورية.

وستتكون مشاهد ملأى بالتناقض والصراع، وستتحول لاحقاً إلى إنشقاقات عدة في حزب البعث العربي الإشتراكي، وسيحمل كل انشقاق في داخله صورة حزب جديد له تنظيمه وفكره وأهدافه، وفي كل انشقاق سنجد الضريبة المستحقة لحل الحزب، والوحدة، والانفصال.

في الأردن إنشقّ عبد الله الريماوي وضرب إسفيناً بجسد الحزب هناك، ومضى في دعوته لإنشاء حزب بعث جديد على صورة دعاويه وحججه، ولحقه في العراق فؤاد الركابي في اتجاه، وفيصل خيزران في اتجاه مضاد. وهنا وهناك أخذت تتكون ظاهرة «التاركين» من الحزب.

وفي المغرب العربي، لم يسلم الحزب هناك من نقدٍ عقائدي وسياسي، سواء من داخل التنظيم أو من خارجه. وتزامن النقد هناك مع ظهور نزعات يسراوية أشهرت نفسها لاحقاً تحت أسماء كثيرة. وهذه النزعات وجدت أرضها وضالّتها في الأرض الفرنسية وبين الطلبة العرب هناك، وخصوصاً أبناء المغرب العربي.

وبشكل عام، ستتسلح فصائل حزبية عدة، منشقة بدعوة الخصوصية الوطنية، علماً بأن فكر البعث لم يتنكر لها على الإطلاق، بل اعتبرها عامل إغناء وإثراء للوحدة العربية. وسيكون الدفاع هذه المرة عن الخصوصية بالفكر الماركسي المؤدلج بمنطق الرغبة والبحث عن الذات والزعامة، وفتح حوانيت جديدة.

لم تكن تلك الدعوات خاتمة المطاف، وإنما كانت تصطف جنباً إلى جنب مع تكتلات عصبية تدَّعي لنفسها الأحقّيّة في تأسيس البعث، سنجد ذلك واضحاً، ولكن بحياء، عند جلال السيد، الذي كان من كبار الملاك الزراعيين في الجزيرة، وصاحب شأن في عشيرته. وقد عرف السيد بموقفه المعادي لأكرم الحوراني، ثم تحفظاته على تصرفاته ومواقفه وخصوصاً التقارب السوري ـ العراقي الذي كان السّيّد من دُعاته.

وجماعة القطريين، وهي المجموعة التي انشقت عن أكرم الحوراني لاحقاً، بالإضافة إلى بعض البعثيين الذين رفضوا فكرة حل الحزب واعتبروها قميص عثمان، كلما ضاقت الأرض بهم أخرجوا القميص العتيق المهلهل من مخبئه ورفعوه إلى عنان السماء.

وهناك أيضاً مجموعة من الضباط البعثيين عملت على إنشاء تنظيم عسكري للبعث، بدأ مشواره من سيناء، مدفوعاً برد الفعل على التنكر لهم من قبل النظام في الجمهورية العربية المتحدة خلال فترة الوحدة، ومن ثم تهميشهم وتكليفهم بمهام لا ترقى إلى مستوى كفاءاتهم واختصاصاتهم.

وهذه المجموعة ستكون نواة لتنظيم عسكري بعثي، تتسع دائرته بسرعة ويستوعب مجموعة غير قليلة من ضباط حزب البعث العربي الاشتراكي، وسيحقق نصراً لأهدافه في الثامن من آذار. وسيكون وصول البعث إلى السلطة، على ظهر ذلك التنظيم، بداية لخلافات جوهرية داخل بنية البعث التنظيمية التي استكملت حلقاتها غداة الثامن من آذار عام ١٩٦٣، وستنتهي هذه الخلافات إلى نهايات مأسوية، تتمثل، على نحو أو آخر بتزايد حدة الانقسامات داخل البنيان التنظيمي للبعث، وتزايد الأجنحة. وستكون خاتمة هذه الخلافات حركة عسكرية تمت في وضح النهار من يوم الثالث والعشرين من شباط سنة ١٩٦٦، أدت إلى إقصاء القيادة القومية، وهجرتها، من بعد، خارج القطر السوري.

وبعد أن سكتت المدافع بقليل، عاد الجيش إلى ثكناته، بدأت، في بنية الحكم على المستويين الحزبي والرسمي، خلافات جوهرية حول مجموعة من القضايا الوطنية والقومية، باطنها شيء وظاهرها شيء آخر. ولكنها تمحورت حول القول بيسارية طفولية، ونزعة يمينية جديدة. وانتهت هذه الخلافات إلى قيام الحركة التصحيحية التي قادها الرئيس الفريق حافظ الأسد عام ١٩٧٠.

ومنذ ذلك التاريخ أُسدِل الستار على الإنقسامات داخل البعث إلى أجل غير مسمى، مصحوبة هذه المرة بتغير الذهنية الحزبية وحساباتها اليومية وطريقة تفكيرها، حيث تنامت هذه الذهنية مع نمط من الاستقرار السياسي لم تشهده سورية من قبل.

لكن مجموعة من شبّان البعث ستهرب خلال لحظات الإنقسام الأخير نحو الماركسية، وستحاول بكل جهدها بناء تنظيم ماركسي جديد وعيونها موجهة نحو قواعد البعث لتستقطب منه ما يمكن استقطابه معلنة قطيعتها مع فكر البعث، ولكنّ حماس الشباب ونزعة الاستعجال دفعتهم للإمتداد إلى الجيش، فضُرِبوا شرَّ ضربة. وكان الثمن مكلفاً للتنظيم، حيث تشتَّتت قواعده وتفرقت والتهت بمشاكلها اليومية، وبمراجعات للتجربة لم تسفر، حتى هذه اللحظة، عن شيء جديد يذكر.

في العراق كان تاريخ البعث يُعيدُ نفسه بشكل أو بآخر على النحو الذي جرى في سورية، سواء قبل الثامن من آذار أو بعدها، وستخرج من عالم البعث هناك أجنحة عدة، كل واحد منها يحمل وعوده الذاتية بأنه سيكون له شأنه السياسي ومدرسته الفكرية التي تستفيد من تاريخ الحزب وفكره.

غير أن سيرورة الإستقرار داخل البعث هناك لم تَسِرْ على وتيرة واحدة، بل أخذت تعصف بها نزعات الانقسام، الواحدة بعد الأخرى. فبعد عودة البعث إلى السلطة في وضح النهار من يوم ١٧ تموز ١٩٦٨، وعلى ما أذكر، بدأ إنشقاق ناظم كزار، أبو حرب، الذي قدَّرتُ، من خلال رؤيتي له في أكثر من مناسبة، أنه مسكون

بأوهام عدة ستشكل مقتله في يوم من الأيام. ولكن هاني الفكيكي سيترجمها ويفسِّرها بشكل آخر بكتابه سيِّىء السمعة، «أوكار الهزيمة - تجربتي في حزب البعث العربي الإشتراكي»، دار الريس ١٩٩٣[(١٤)].

ونعرف من بعد أن عبد الخالق السامرائي حاول أن يُضفي على إنقسام الكزار مسحة أخرى آتية إليه من أحد الشطار الذين تربعوا على فكر البعث وتراثه منذ أوائل آذار، حيث كان هذا الشاطر يتمركس حين تلمع الماركسية، ويعود قومياً حتى النخاع عندما يفيده إحساسه أن الماركسية ستدفع ثمن أخطاء الحكم في منظومة الدول الاشتراكية. لكن السامرائي تسقطه نزوة الشطار، وكلفة الأوهام، وخطأ الحسابات.

وخلاصة القول إن البعث العربي الإشتراكي في كل فروعه وتنظيماته كان مسرحاً لمستويات عدة من نزعات الإنقسام، وكانت إمّا موغلة في انشقاقها، أو متأنية أو كسولة في نزعة الإلتحام. غير أن النزعة الأولى كانت ساكنة فيه منذ بداياته، لأنه لم ينجح في بناء جيل جديد شكّل رهانه المستقبلي قبل أن يعلن عن تأسيسه. وكان ذلك في أدبيات نقطة البداية التي كتبت في مطلع عقد الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين. وعرفت الساحة العربية بوضوح

---

(١٤) لقد قمت بنقد هذا الكتاب في مقال لي بعنوان «المهزومون وحدهم في أوكار الهزيمة» ولكن رئيس تحرير مجلة الناقد الذي نشر المقال وضع له العنوان التالي «الشطار - والزعار» في العدد رقم ١٧ شهر مارس ١٩٩٤ص ٧٠- ٧٥.

ولأول مرة وجود أحزاب البعث العربي الإشتراكي. وعرف الناس بخلافاتهم الحادة والتهم المتبادلة بينهم. وأدخل ذلك الخلاف إلى البعث أفواجاً، وأطرافاً، لا حول لها ولا قوة إلا زيادة حدة الخلاف بين القواعد التنظيمية الأصلية، والإساءة الدائمة إلى تلك القواعد تحت مسميات كثيرة لا سبيل إلى ذكرها.

أروي ذلك كله باختصار شديد يصل إلى درجة هز بعض الشواهد وعدم وضوحها أمام القارىء. وعذري في ذلك أسباب كثيرة. منها أن لي في كل طرف من هذه الأطراف أصدقائي ومعارفي ورفاقي في النضال السلبي، وأني رويت تاريخ البعث بكتابي الذي أشرت إليه سابقاً وإن كان بوتيرة أخرى، ولأقول إن الحوراني عاد إلى الساحة السورية ليقوم بدوره السياسي محملاً بقوة الإعلام بوِزْرِ الإنفصال، وأيضاً بالحسابات الخاطئة، وحُسْن النية في بعض الأحيان، والإنفعال والعصبية وردود الفعل إلخ.. وكانت أخطاء الفارس المتعب مُكْلِفة، وكبواته تحسب عليه بألف ضعف مما تحسب على غيره.

وقد شعر الحوراني بذلك عندما تبارت إلى إدانته جهات تنظيمية عدة تنتمي إلى البعث في كل من الأردن ولبنان والعراق والخليج العربي. وأصبح هاجس الحوراني إعادة ترتيب بنية الحزب في سورية على ضوء ما يجري على الساحة السورية فقط.

والملاحظ أن تنظيمه الجديد، الذي ظهر تحت إسم الإشتراكي أو «الاشتراكيون العرب»، أخذ يعدّ العدة لاستقطاب الشارع الحموي في المدينة والريف تحت سماء ملأى بالرعود التي يحدثها

وقع الإنفصال في كل يوم.

ويبدأ الزيارات إلى الأحياء مدعوماً بتعبئة سياسية جادة ورزينة. وترافق ذلك مع جولات إلى الريف. ونجح الحوراني في استقطاب قواعد الحزب، كما أشرت. أو بشكل آخر أعاد تلك القواعد إليه تحت الإحساس بقوة الظلم الذي لاقاه الكثيرون من أجهزة الأمن والشعبة السياسية والإتحاد القومي، إلخ. ولم يبق لحزب البعث العربي الإشتراكي إلا قلة قليلة لا تتعدى الخمسين شخصاً[١٥].

والجدير بالذكر أن هذه القلة ستكون النواة لتنظيم حزب البعث العربي الاشتراكي السوري. وستحاول هذه المجموعة أن تكسب من القواعد التي استقطبها الحوراني، لكنها لم تنجح مع وقف التنفيذ، حتى جاء الثامن من آذار، وبدأت مجموعات من هذه القواعد تأتي تباعاً إلى سلطة البعث.

وتفيدنا الأحداث، ونحن جزء منها، في حماة أن جماعة الحوراني حشدت كل طاقاتها وإمكاناتها لمعركة الانتخابات القادمة في أعقاب الإنفصال. وفي هذه الأثناء عادت نغمة فصل الريف عن المدينة، لأنه بدون الريف سيكون نجاح قائمته صعباً ومحفوفاً بالمخاطر. غير أنه تصدى لهذه الدعوة بحزم وقوة، وتمَّ له الأمر. وفشلت المؤامرة، على حد قول صاحبنا خالد الهويس، وتمت

---

(١٥) عندما توجهنا إلى سورية في صيف عام ١٩٦٣ بعد أن أنهينا العام الدراسي قمنا بالعمل داخل تنظيم «حزب البعث العربي الاشتراكي» الذي أصبح يحكم سورية. وقد كان عدد الأشخاص المنتمين إلى الحزب في محافظة حماة حوالى خمسين شخصاً بين أعضاء وأنصار.

الانتخابات، وكسب الحوراني الجولة ضد خصومه التقليديين كافة من بقايا الملاك الكبار ومن في معيتهم.

وكسب الحوراني الإنتخابات التي جرت في فترة الإنفصال. وكان ذلك النجاح مدعاة له ليعزز مخططه القديم القاضي بإعادة السيطرة على الحياة السياسية في سورية من خلال البرلمان، وحُكْم سورية بالأغلبية البرلمانية. كان نجاح الحوراني، بالنسبة لنا نحن جماعة القيادة القومية، متوقعاً. وهذا الأمر استنهض فينا العزم لمزيد من الحوار مع قواعد حزب العربي الاشتراكي، رفاق الأمس.

كان نجاحنا محفوفاً بالصعاب من كل جانب. وفي هذه الأثناء زاد سجالي مع مستويات عدة من قيادات أكرم الحوراني. وكان معي الأخ مروان الخاني، وغالب السبع. وكان السجال ينطلق من موقعي الحزبي في التنظيم القومي أولاً، ومن محاولات أشخاص من تنظيم الحوراني كسبي إلى جانبهم بحكم حسابات الأصوات الإنتخابية والأقرباء والأصدقاء مثل خالد الهويس وأمين الدياب، حيث كان لنا نقاشات عدة حول تجربة الوحدة، وخصوصاً أخطاء الحزب في هذه التجربة. كما أنني كنت أنبّههم إلى بعض القوى التي تريد دفع الحوراني إلى حرق أوراقه القومية، تمهيداً لضربه في حماة.

وأذكر أنني في شتاء عام ١٩٦٢ كُلِّفْتُ بمهمة حزبية من قبل التنظيم القومي في القاهرة، وسافرت إلى دمشق، وقد رافقني إلى المطار آنذاك الصديق المرحوم أحمد إسكندر، والسيد متعب شنان، ونقلت للأستاذ رغبة العديد من قيادات الحزب في التنظيم القومي

توقفه عن مهاجمة عبد الناصر، وكان من بينهم مدحت جمعة. ولكن كما يقال سبق السيف العذل، حيث قرر الحوراني أن يخوض معركته حتى النهاية مع عبد الناصر وإعلامه. والتقيت به ثانية في صيف عام ١٩٦٢ بصحبة مروان الخاني وخالد الهويس وطالب الراعي من أجل جس النبض من أجل مصالحة بين كل من الأستاذ والحوراني وصلاح البيطار.

وكانت تلك المحاولة من جانبي مدفوعة بمنطق الرغبة حيث كان وجود الحوراني في الحزب واستمراره فيه ضمانة لمستقبل البعث على أساس التعددية السياسية والعقلانية في تغيير وتوجيه الواقع السوري وتحولاته. وكنت أتمنى لو أن الحوراني قبل نقد نفسه في مواقفه تجاه تجربة الوحدة وتجاه عبد الناصر على وجه التحديد.

لكن كما يبدو أن الدروب تعددت وكثرت الطرق والمفارق والمداخل. وهناك أكثر من طرف يسعى ليبقى الحوراني خارج البعث، ودَفْعِهِ باتجاه حقل الألغام لتتفجر فيه، وكان نصيب الحوراني على المستوى القومي أنه خسر الكثير من صُدْقيته القومية في الشارع العربي.

ومع الأسف، فإن الاستفزازات تكاثرت على الحوراني من عواصم عربية عدَّة، وأكثر من جهة سياسية وحزبية، وكلها تسعى إلى قطع الأوصال. وتحضرني بهذه المناسبة بعض المقالات الرخيصة التي كتبها هواة اليسارية الطفولية الضالّة ضده، من أجل رميه بالحجارة.

تصدينا، مجموعة من التنظيم القومي، لهذه الحملة بحزم، منطلقين من قناعات حزبية أن هناك محرمات في شخص الحوراني لا يجوز الاقتراب منها ورميها بسوء، ومن يفعل ذلك يكون كمن يجلد نفسه.

وأذكر أن الأخ المرحوم أحمد كحلة، حضر إلى منزلي ومعه الأخ مصطفى رستم. وكعادته مازحني قائلاً: لم أكن أعرف أنك مدسوس من قبل تنظيم الحوراني. وقال متهكماً: إن دفاعك عن الحوراني في اجتماع الأمس جعل فلاناً يقول عنك ذلك الكلام.

ومرة ثانية باختصار، وضع الحوراني تحت قيد الإقامة الإجبارية. ووضعت في أذهان الحزبيين ما مفاده تطبيق المُساءَلة الحزبية والتنظيمية بحق من يقدم على زيارته في منزله. وكانت التقارير تأتي تباعاً عن الأشخاص الذين يزورون الحوراني، وعمّا دار هناك من أحاديث، وكلها تتجمع ليزداد التوجس منه، وكثرت أساليب رصده.

وتعددت أطراف الحكم التي تريد إنصاف الحوراني ورفع عقوبة العزل السياسي عنه. غير أن الصراعات داخل الحزب كانت تتقاطع مع هذه الرغبة وتفكك حلقاتها، وتحول دون إنجاز غاياتها.

وكانت الصراعات أيضاً تلتقي لزيادة الرقابة على الحوراني، وكسر الجسور معه، وتغليب العداوة على الصداقة. وكأن قراراً قد اتخذ بطَيّ صفحة الحوراني من الحياة السياسية السورية، إلى حيث لا رجعة البتة. أو إلى أجل غير مسمى.

ومع ذلك، فإن الحوراني كان معنياً بعودة الحياة الديمقراطية

البرلمانية إلى سورية، وأن تمارس كل الأحزاب بما فيها أحزاب البعث العربي الاشتراكي التعددية السياسية جنباً إلى جنب، وتحت قبة البرلمان. وهذا ما كنت أستخلصه من بعض أنصاره خلال وجوده في سورية، وقبل خروجه إلى المنفى الكبير، وأيضاً خلال استماعي لآرائه بهذا الصدد في بيروت. وكان يربط سلامة الحياة الوطنية في سورية بالنظام البرلماني، ويراهن عليه في دور سورية القومي، والتقدم في القضية الفلسطينية. إذاً، الحياة البرلمانية في سورية من وجهة نظر الحوراني الطريق إلى عقد اجتماعي جديد ينظم الحياة السورية. والملاحظ أن تمسك الحوراني بالديمقراطية هو من الدروس المستفادة من تجربة الوحدة السورية ـ المصرية.

وأذكر بهذه المناسبة أن تصريحاً نُقِلَ على لسان الحوراني بشأن العودة إلى الانتخابات البرلمانية أثار ضجة بين أوساط بعض الحزبيين، وكانت ردود الفعل شديدة من قبلهم، خصوصاً ذلك النفر الذي ادّعى اليسارية وتنكّر لها بشدة، وساهم في إسقاط صلاح البيطار في انتخابات الشعبة الحزبية، ثم أصبح من حواريه، حيث أخذ نقدهم لتصريحه هذا يأتي تحت عنوان الديمقراطية البرجوازية والديمقراطية الشعبية، وأطروحات شتى ذهبت بذهابهم، وطارت مع الريح.

في الجانب الآخر، أي داخل صفوف حزب الحوراني، كانت الردود الإنفعالية تأتي من قِبَلِ ذلك النفر الذي غمس أصابعه في استغلال سهل الغاب، واستغل عياداته ليمتص جهد أهل الريف تحت مظلة العصبية الحزبية، وما توجده من قناعات بهذا الطبيب أو

ذاك. وتحولت بعض هذه العيادات إلى مستشفيات شعارها إدفع أولاً. وذلك الفريق الذي امتهن الرشوة من الفلاحين وفقراء المدن مقابل وساطة شخصية حكومية، ثم مكاتب المحاماة التي تحولت مداخيلها إلى فيلات ضخمة في حيّ الشريعة في حماة.

وفي تلك الأحياء، والضواحي الجديدة تصالح «اليمين» مع «اليسار» وتعايشت «الثورة» و«الثورة المضادة»، وأقام الجميع أعراسهم في أحسن الفنادق.

أما خضّور، وعمر، وخالد، وعيسى، وفهد الفلاح؛ فقد بقوا على أوضاعهم يحرثون الأرض، ويسقون الأشجار، وينامون تحت ظلالها بعد التعب والشقاء، ويتناولون طعامهم من البرغل وهم مرتاحو البال.

لكنّ الاستاذ، أي الأفندي الجديد، نشَّط كل شهواته وغرائزه. وبين حلمِ الفلاحينَ وفقراءِ المدنِ بمستقبلٍ أفضل يتوحّد فيه الفعل مع الكلمَة، وظاهرةِ الشاطرِ الثوري، والمثقفِ البهلوان، لا زالت الهوة كبيرة والمسافة طويلة.

وأخذ الحوراني يتنقل من عاصمة عربية إلى أخرى بقوة ظلم الإجراءات من جهة، وما يترتب على الرأي والرأي الآخر من قسوة صاحب القرار.

وبدءاً عام ١٩٧٠ بدأتُ التقيه في مقهى الدولشيڤيتا في بيروت. مرة مع إبن قريتي خالد الهويس؛ كبير المخلصين والأوفياء له، وأبناء عمّي أمين دياب والحاج خالد، وقاسم، ومعنا صديق العمر علي المعطي.

كما التقيته بصحبة بعض الأصدقاء من الجزيرة العربية والبحرين. وخلال هذه المرات، تارة أتفق معه في وجهات نظره، وتارة أخرى أختلف.

كان مهموماً بالوطن العربي وما فيه من أحداث، ووقائع سياسية وإجتماعية وثقافية. وكان له مواقفه ومنطقه السياسي إزاء ذلك كله بوصفه السياسي الذي نذر نفسه لقناعاته وقضايا الأمة. ومن إلمامه المتجدد بقضايا الوطن العربي فإن الجلوس معه كان ممتعاً ومفيداً لما فيه من حلاوة الحديث، وقوة الإشارات والغمزات، وكذلك تحليله المنهجي للدور الأمريكي المعادي للقضايا العربية، وأثره على الأداء السياسي، وتسييره للأحداث بشكل يخدم الصهيونية العالمية.

كما كان الحوراني يستفسر من محبيه وزواره ومريديه من الأقطار العربية عن أوضاع بلدانهم السياسية والإقتصادية والإجتماعية، وعن الأحزاب السياسية، وعن العديد من الشخصيات السياسية والفكرية، مستفهماً عن أوضاعهم، حيث كانت تربطه ببعضهم علاقات وثيقة. وتجده وهو يتحدث يتوقف عند هذه المشكلة أو تلك باحثاً ومحللاً، فتعجب لسعة إطلاعه وتستريح لوجهة نظره، وتقتنع بما يقوله عن هذه القضايا، وتشعر بأنك أمام سياسي لامع خبر الحياة العربية، وعرف خباياها، وجعلها قضية له، فقد خُلِقَ الحوراني ليكون رجل القضايا القومية، يصيب ويخطىء، شأنه شأن أقرانه، لكنّ الإنتماء إلى عروبته لا يفارقه قط.

وكان كثير النصح للشبان العرب الذين يأتونه من كل صوب

داعياً إياهم للمزيد من النشاط السياسي الهادف والبنّاء الذي يضع باعتباره الاستفادة من التجارب التي مرّ ويمرّ بها الوطن العربي، أينما كان الحدث السياسي وأياً كانت أشخاصه وقواه.

كنت آنذاك من بين هؤلاء، فتأثرت بالكثير مما قاله. ولا أكتم سرّاً إذا قلت إنه كان له دوره في قراري بإنهاء حياة اللجوء السياسي، والبحث عن حلّ لعودتي إلى وطني ومتابعتي الدراسة لتحصيل الدكتوراه.

في حياة الحوراني تقرأ لمحات كثيرة من تاريخ الأمة العربية الحديث، في صمودها وجنوحها وإخفاقها، بدءاً من مناهضة الإستعمار الأوروبي، والجهاد ضده، مروراً بثورة رشيد عالي الكيلاني عندما التحق بها ليقاتل بالسلاح، ثم كفاحه في فلسطين تاركاً وراءه مجلس النواب الذي كان عضواً منتخباً فيه.

وهناك تعلم الكثير وعرف أن الكيان الصهيوني وُجِدَ بقوة السلاح والتآمر والخيانة، وبقوة الجهل والتخلف والتجزئة، وأنه وُجِدَ ليبقى محروساً بحراب الغرب والإمبريالية الأمريكية.

ومن هذه التجربة خلص إلى أن تنظيف الأوطان العربية من الطابور الخامس، والقضاء على الأمية والتخلف، هو الواجب الذي لا يقبل التأجيل.

وأفادنا مراراً أن حكم الشعب نفسه بنفسه، عن طريق الإنتخابات هو الضامن الوحيد للخلاص من التحديات التي تواجه الأمة العربية، وتقوّي العروة الوثقى بين مللها ونحلها.

وتحضرني بهذه المناسبة صولاته وجولاته خلال العدوان الثلاثي على مصر، وتصريحاته الملتهبة ضد قوى العدوان. وأزعم أن ما من متطوع من شباب سورية ذهب إلى السفارة المصرية عهدئذ ليسجِّل إسمه في قائمة المتطوعين ضد العدوان الثلاثي إلا وكان لكلماته نصيب، أو بعض نصيب.

كما وقف الحوراني في البرلمان إلى جانب المغرب العربي، وثورة الجزائر على وجه التحديد في المهرجانات التي تمت في المدن السورية من أجل مناصرة الثورة الجزائرية بالمال والسلاح. كان للحوراني فيها باع كبير عبر نشطاء حزب البعث العربي الاشتراكي، حيث كان للحزب في هذه المهمة القومية مقام كبير وحضور مكثف[١٦].

أذكر، وأنا أستشيره في مسألة اختياري لظاهرة الإنقسام في حزب البعث العربي الإشتراكي موضوعاً لأطروحة الدكتوراه أنه أوصاني بالدقة والموضوعية والتركيز على القضايا المصيرية، والترفّع عن الأشياء الصغيرة التي هي إلى زوال، مثل النزعات المحلية والجهوية والمذهبية، وخصوصاً هذه الأخيرة.

وقد قال لنا بأنه صرف الكثير من وقته، وعمل كل ما يستطيع للقضاء على النزعات الإنقسامية، إنطلاقاً من يقينه بأن الوحدة

---

(١٦) شاركت كل الفئات الإجتماعية في المدن والريف في الإحتفالات التي أقيمت لصالح ثورة الجزائر وتبرع الناس بما لديهم. وخلعت النساء أساورها وقدم الأطفال نقودهم لهذه الثورة.

الوطنية هي السلاح الأمضى الذي يحارب به كل التحديات التي تواجه الوطن والأمة. وكسب الرهان في كسر الفجوة بين الريف والمدينة والانتصار على الملاك الكبار وعلى الأحلاف الاستعمارية التي حاصرت سورية من كل جانب واستهدفت سيادتها.

وأذكر أنه قال لنا في إحدى الجلسات معه بأن حزب الشباب جاء في وقته، وانتهى بانتهاء مرحلته إذ وضعناه في سياقه التاريخي، وأن حزب العربي الاشتراكي هو بمثابة تطور ذاتي وموضوعي لحزب الشباب، وقد جاء يلبّي مرحلة جديدة في سورية حافلة بالتحولات السياسية والإجتماعية. والمعروف عن الحوراني نزعته العربية المبكرة وحماسته للوحدة. وإن كانت هذه الحماسة قد هدأت بحكم قوة التجربة وما تمخّض عنها من دروس مستفادة.

ولا شكّ أن هذا الوعي المبكر هو الجواب على التخريجات التي قال بها بعض الساسة، ومفادها أن الحوراني مشى باتجاه الوحدة ليحرز مكاسب لم ينلها بالديمقراطية. وأقول على لسانه بأنه لو لم يكن عربي الهوى والاتجاه فمن الذي جعله يذهب إلى العراق ليقاتل بالسلاح في صفوف ثورة رشيد عالي الكيلاني. وأشهد أني ما التقيته مرة من هذه المرات القلائل في بيروت وبغداد إلا ولاحظت حماسته القوية تسكنه في كل قسمات شخصيته، حتى مسبحته التي لا تفارقه كانت شاهداً على ذلك.

وليس من التعصب في شيء إذا قلت إنه ولد قومياً بحكم الولاء العفوي والفطري للعروبة في بلاد الشام. فإذا سألت أي مواطن في طول تلك البلاد وعرضها عن أصوله، لقال لك بتلقائية لا تصنّع

فيها، إنها العروبة. فالإنسان هناك يرضع العروبة من ثدي أمه، ويشبّ مع كل التحديات التي تواجهها في الداخل والخارج.

والخلاصة، إن الحوراني كان ضحية من ضحايا قوة الإنقسامات في حزب البعث العربي الإشتراكي، وما ترتب عليها من فعلٍ ورد فعل.

وكنا جميعاً، وإن من مستويات مختلفة، محكومين مرة بالأحكام المبنية على الردود التي تفرزها ظاهرة الإنقسام، ومرة أخرى بمصالحة تاريخية بين أجنحة البعث وأحزابه، تعيد للوطن عروته الوثقى، وتغلب نزعة الإلتحام على نزعة الإنقسام[١٧].

إذاً، فقد عرفت الحوراني منذ نعومة أظافري وغنيت له مع أبناء قريتي، وتغنيت ببطولاته، ونمتُ في أحضان أمي أو على ركبة إحدى شقيقاتي، إما على مصطبة الدار، أو جرام بيدرنا، وقريباً من الساقية وأنا أستمع إلى الحكايات عن بطولاته وشجاعته وحلمه بوطن خال من الاستغلال والتفرقة والنعرة المحلية.

وكم من مرة أطلقنا الرصاص، أقصد أنا وصحبي وأقاربي، إما إحتفالاً بقدومه، أو تحية له وهو في مجلس النواب، أو مناصرة لتصريح أو قول له.

---

(١٧) دعوت ولا أزال للمصالحة التاريخية بين دمشق وبغداد. واعتبرت المصالحة مهمة قومية لا تقبل التأجيل على الإطلاق. وكان فاتحة عهدي في الدعوة هذه في منتصف عام ١٩٩٠ بمقال نشرته في مجلة الصدى التونسية، وتوقعت فيه ضرب العراق قبل أن يدخل الكويت بأشهر عدة.

ولم يغب الحوراني عن ذاكرة قطاعات عريضة من عدة أجيال إنتمت إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، أو عايشت الحياة السياسية في سورية. كنت واحداً من ذلك الجيل، والذاكرة هنا منحة إلهية جعلتني أتواصل معه فترة بعد أخرى.

كان الحوراني بحق سيرة قومية، عندما يقرر الإنسان كتابتها وتأريخها يجد نفسه مدفوعاً بقوة هذه السيرة أن يأتي على ذكر العديد من الأحداث والوقائع السياسية والإجتماعية التي تمت في الحياة السورية بدءاً من النضال المسلح ضد الاستعمار الفرنسي، وخلال رحيله خارج سورية وعيشه في المنفى.

وبقي أن أقول إن لقاءاتي به كانت محدودة، بين آونة وأخرى. وذلك حظّي منه، بحكم الظروف العامة والخاصة، وحسابات المواقف السياسية، وذلك هو الحوراني كما أعرفه.

خلاصة ونتائج

إن الآراء والخواطر التي ضمَّها هذا الكتاب بين جنباته هي بكل صراحة ووضوح، ضمن حدود معرفتي بأكرم الذي كَبِرْنا وتطورنا خلال مسيرته وسيرته القومية، وكان محطً آمال وآلام أكثرية شعب تضطهد.

وهذه الآراء والخواطر تجمعها أواصر قربى عدة بالعاطفة التي هي واحدة من خلجات النفس، ومكونات الشخصية. وهي ناجمة عن التفاعل المستمر بين الاستعدادات الفطرية والمحيط الخارجي، ولذلك تتحول إلى هواجس تجيش بها النفس. وبما أن خواطري جاءت على النحو الذي رأيناه داخل فصول الكتاب، فإنها جاءت مرة بقوة الوفاء لأكرم الحوراني، ومرة ثانية لتاريخي في حزب البعث العربي الإشتراكي الذي لا يقل عن نصف قرن. وهي في التحليل الأخير إشارات أضعها هنا وهناك من أجل الأجيال القادمة حتى لا يقال إن تاريخنا سلسلة متلاحقة من النكبات.

وأعود إلى القول، للمرة الأخيرة، إن ما سجَّلْتُه من خواطر وآراء ليست هي كل تاريخ الحوراني، وإنما هي تجليات وشذرات من هنا وهناك. ولذلك مررت على العديد من الموضوعات

والأحداث، ومن جملتها مبادىء حزبه، لا كما يفعل المؤرخ أو المنظِّر، وإنما كما يفعل الذي يسجل ذكرياته. ولم أتبع منهج عالم السياسة بما يفرضه من قواعد في الكتابة وتقنيات بحثية، ولكنني في الوقت نفسه لم أهملها على الإطلاق. وجليٌّ أن هذا النهج في الكتابة يستند إلى ما غاص في النفس، وما حفر في الذاكرة. ولذلك جاءت هذه الخواطر محمَّلة بمستويات محددة من التحليل المنهجي التي فرضت نفسها بقوة نحلة العمل الجامعي «الأكاديمي» وخلجات النفس التي تتجلى في هذا الطابع أو ذاك، بتأثير من قانون الفعل ورد الفعل، واستجابة لوظائف الثقافة داخل الجهاز النفسي، ثم ما للعاطفة من مكانة في شخصي، وأثرها في سلوكي السياسي.

ورغم أنني سلكت درباً غير دربه، وانخرطت في تنظيم عاداه وجافاه وتَحَسَّب منه كثيراً، إلا أنني لم أدع لساني يغلظ الكلام بحقه، ولم أخضع للإملاءات المغلفة بالمبادىء، وإنما تصديت لها حسب قدري وطاقتي في الحزب، وظللت أردد بأنني مدين له، كلما وقفت أمام ذاتي متذكراً ملامسة أصابعه لشعري، ودعوته لي الى طلب العلى، منذ كنت شبلاً.

وثمة دين لوالدي بذلك كله، وكذلك صَحْبُهُ مثل نعسان الصطوف أبو محمود الذي سمَّيناه ماركس القرية، وخالد الهويس وابن عمي أمين، والسلوك الطيب المحب للحاج علاء الدين أو علو الحريري، وأبو عبد اللّه الطيار، وابن محافظة حماة في الأحياء الشعبية؛ في كل حدث سياسي عرفته الساحة السورية والعربية. لذلك فإن مدرسة الوالد علمتني الوفاء له أينما كان، وقولي كلمة

الحق رافع الرأس في رحلة عمري مع البعث والحياة العربية، من قريتي بسيرين إلى حماة، ثم حمص فالقاهرة فبغداد، وإلى الجزيرة العربية، وفرنسا، وتونس، إنطلاقاً من شواطىء بيروت عروسة الوطن العربي، ومحراب الحرية فيه.

لكن المنهج، على ضيقه بين الخواطر، أَلْزَمَني بِذِكْرِ العديد من الوقائع والأحداث المغطاة بمستوى من التحليل الاجتماعي والسياسي، ومقاربات أنثروبولوجية متواضعة البعد والإشارة والمشهد، بدءاً من أواسط الثلاثينات، وهي اللحظات التي تشابكت فيها فاعليات الحوراني السياسية. وكان البدء في هذا المنحى التزامه بحزب الشباب، الأمر الذي أدى إلى امتزاج تاريخ الحوراني بتاريخ هذه الحركات، فتطور بتطورها، وانتقل بانتقالها من موقع إلى آخر.

وتحول إلى الحزب السوري القومي في لحظة من بحثه الجاد عن الطريق إلى أمة خالية من الاستعمار، ومحررة سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

غير أن الحوراني، كما عرفناه، لم يجد في «السوري القومي» الطريق الذي يوصله إلى أهدافه وتطلعاته، كما أن تجربته آنذاك لم تحسب على هواجسه.

بعد حين أسس حزب العربي الإشتراكي منقاداً هذه المرة بهمومه من جهة، وبالتغيرات والتحولات التي شهدتها الساحة السورية والعربية، ومنسجماً مع قوانين المرحلة الداخلية منها والخارجية. والملاحظ أن ما مِنْ مؤرّخ إجتماعي وسياسي ومحلل منهجي أراد أن يقرأ تاريخ سورية ويكتبه إلا وجد نفسه لا محالة

أمام شخص الحوراني بكل تجلياته. ودستور الحزب العربي الإشتراكي، الذي تتصدره المادة الأولى والتي تقول بأنه حزب عربي ينظر إلى القضايا التي تعتمر بها الحياة العربية من منظار قومي، ويعالجها من وجهة نظر المصلحة العربية العليا. ثم نظامه الداخلي الذي تحكمه مجموعة من الضوابط الحزبية والعقائدية والوطنية والقومية. وبين الدستور والنظام الداخلي، كما لاحظنا، خيوط مبدئية ومنطلقات نظرية وآليات تحليل تُحْسَبُ في نهاية المطاف على الفكر السياسي العربي، وتعتبر نفسها نسقاً من أنساقه.

وأفادتنا تلك المرحلة أن حضور الحوراني كان ساطعاً في الريف إلى الحد الذي أعتبر فارسها في معاركه مع الملاك الكبار، ولذلك أضفى عليه صفة الزعامة.

ونلاحظ مما سجّلناه وعايشناه وعرفناه أن ديدبان الحوراني كان يتمثل في وقوف الريف على أقدامه، واعتماده على نفسه وطاقاته وإرادته في الوصول إلى حقوقه غير منقوصة. فدعا أبناء الشعب العربي السوري إلى تغليب العقل والمنطق في حياته، وتنشيط الحوار الاجتماعي بينهم على اختلاف مللهم ونحلهم وشرائحهم الإجتماعية، وتفعيل الإندماج والوحدة الوطنية بين الريف والمدينة.

ورغم كل ذلك، أي إسهام الحوراني في يقظة الريف السوري، واستقلالية القرار السياسي، فقد اضطر إلى ترك وطنه بحكم قوة الحسابات الخاطئة والأوهام الغائرة في أعماق الموروثات الثقافية، التي تجعل في نهاية الأمر، أن من لا يستطيع القول النصيحة لوطنه هو القريب من السلطة والسلطان. أما صاحب الفعل والقول السديد

فإنه أبعد الناس عنها في بعض الأحيان والأوطان.

وبناء على هذه الخلفية الثقافية السياسية، أصبح الحوراني ضحية للأشياء التي لم يستطع الحزب اجتثاثها من البناء الإجتماعي السوري فتوازعته الدروب، وتقاسمت تنظيمه الأهواء والأغراض الشخصية وبعض النزعات المحلية.

وفي تقديري أن ما حدث للحوراني من أبناء حزبه هو خلاصة لتلك الأخطاء مجتمعة. فالحزب الذي لا يستطيع أن يلزم قيادته باختيار واحد من أبناء الريف ليكون مرشحه في الإنتخابات البرلمانية، ويتغلب فيه الرأي الجائر في نزعته الجهوية (فلاح ومدني) لا يمكن أن ينصف قائده في ساعة المحنة، ويخصص له مقعداً في شرفة المناضلين، على النحو الذي تفعله المجتمعات المتقدمة عندما تكرِّم أبطالها في الأعياد والمناسبات الوطنية.

غير أن هذا التقليد الحضاري أكبر من خصالنا الثقافية الراهنة، وأعلى من إمكاناتنا النفسية، وهناك مسافات شاسعة بيننا وبينه، على ما يبدو حتى هذه اللحظة واللحظات القادمة، وإن كنت قد فاتحت فيه أكثر من صديق وزميل، ورجوت الأخذ به في أعيادنا الوطنية والقومية، وفي مناسبات سياسية. وتمنيت أن يتحول إلى تقليد وطني وقومي، لعلّه يكون بداية اطمئنان نفسي للمستقبل، وما يأتي معه من تحديات، وخطوة إلى الأمام للقضاء على نزعة الثأر والانتقام التي تأكل في جسد الأمة أكل الجياع.

أما الانشقاق فقد طال بنيانه التنظيمي. فتعددت لذلك مستويات الإنقسام، وتنوعت أسبابها وأغراضها، وتعددت دروبها. وبفعل

الإنقسام تحول الحزب إلى قوة نابذة لأعضائه المناضلين، وجاذبة لأصحاب المنافع، لذلك نشأت على هامشه فئة «التاركين» أو «القاعدين» وهم أصحاب الضمائر الحية من البعثيين الذين أرادوا أن يتجنب الحزب سوءات الرفقة. ومع ذلك فقد بقيت في قواعد الحزبيين نماذج رائعة نراهن عليها في التصحيح والتلاقي وتجديد النضال.

ونستفيد من تلك المعطيات، بما تتضمنه من مؤشرات وما يمكن أن تشكله من مشاهد، أن فكرة الجيل الجديد، وهي رهان الحزب وهاجسه القيادي، لم تنل حظها داخل الجهاز الحزبي.

وإن فكرته لم تصل إلى وعي قواعد الحزب على النحو المطلوب. كما أن شروطه لم تتحقق داخل البنى التنظيمية، فبقيت في حدود الأماني.

وهذا معناه أن ثمة تحديات حالت دون ولادة الجيل العربي الجديد على النحو المطلوب. ولذلك وجدت الفواصل والمسافات بين القول والعمل، وكذلك المفارقة بين الفكر والممارسة.

وإذا قيل بأن ظاهرة الإنقسام لم تكن حكراً على حزب البعث العربي الإشتراكي، وإنما هي بمثابة قاسم مشترك بين جميع الأحزاب العربية، فإن هذا القول يدعمنا ولا يقلل من حجتنا لأن حزب البعث لم يتجاوز تلك الأحزاب، ولم يحقق سبقاً عليها، ولم يظفر بقفزته النوعية الواعدة، وإنما بقي في دائرتها التقليدية وكأننا لا جئنا ولا رحنا.

غير أن الحوراني، وإن كان قد نجح في بداية عهده بالسياسة

بصياغة عقد اجتماعي جديد قوامه الوحدة الوطنية، والاندماج الاجتماعي والثقافي، فإنه لم ينجح النجاح المطلوب في توفير شروط الديمومة والاستمرار لهذه الوحدة، مما أدى إلى غلبة العناصر التفكيكية من محلية وقبلية، التي كانت متمرسة وراء المفارقة بين الفكر والممارسة. لذلك لم تبرح فكرة الجيل العربي الجديد مطرحها، وبقيت في حدود الأماني داخل سياق مشروع وطني قومي، لم تصل إليه الأمة ولم تعشه حقيقة، إلا في بعض الأحداث الكبرى، على الرغم من وجود نماذج الجيل الجديد في أكثر من موقع ووظيفة وعمل ومدرسة وثكنات عسكرية ونادٍ وحي وقرية.

وحول ذلك نسأل ونتساءل أليس وجود الحوراني في المنفى شاهداً على أن أحداثاً كثيرة في الحزب لم تتحول إلى دروس مستفادة، وأن المعايشة داخل بنيانه التنظيمي ظلت حبيسة عناصر ثقافية وإجتماعية لا تمتُّ إلى أهداف وتطلعات الحزب ومراهناته وهواجسه بصلة من الصلات؟ لذلك تغلَّبت فيه المعرفة الشخصية على القدرة النضالية، فكَثُرَتْ فيه ظاهرة الأَتْبَاع والازلام، وتلاشت فيه العناصر الديمقراطية. وبقوة هذه الظواهر التقليدية فقدت جماهيره القدرة على القيادة، فارتدت إلى خلف القيادة، الأمر الذي أدّى من بعد إلى تخلف القيادة عن القواعد. أليس خلو قائمة الحزب في حماة، خلال فترة الانفصال، من فلاح، شاهدَ إثبات على ذلك؟ فالقيادة التي لا تستطيع أن تستشف رغبة القواعد وتستبصر تطلعاتها، لا بدّ أن تدفع لاحقاً الثمن غالياً.

كما أن القيادة التي تُلغي دور قواعد الحزب، فإنها بهذا الإلغاء تصادر روح المبادرة التاريخية التي لا يقوى عليها إلا الشعب صاحب المصلحة الحقيقية والقول الفصل في التحرر والوحدة والاشتراكية. وإن الشعب الذي يفتقر إلى هذه المبادرة تنقصه القدرة على مواجهة التحديات والتصدي لها، وتجعله أسيراً للتهميش الحضاري الذي يأتيه من الداخل والخارج.

وعلى هذا الطريق أصبح مصير الوطن العربي رهن مصالح القوى الكبرى، وتحولت الدعوة إلى تحرير فلسطين إلى سبة يطلقها دعاة «الوقوعية»، على حد تعبير المفكر القومي كامل زهيري، أولئك الذين يتكاثرون بسرعة، ويغادرون مواقعهم وعيونهم مُصَوّبة نحو مصالحهم الخاصة، وترفهم الذي يفوق مصالح الأمة العربية من المحيط إلى الخليج.

كما تحولت الوحدة العربية في ظلام السلام المعكوس، إلى وَهْم تتحكم بها بعض الأساطير، على حد دعاة الردة الجديدة. وأصبحت اللغة العربية بزعم ممن أطلقوا سيقانهم للهروب نحو الكيان الصهيوني عبئاً على الشعب العربي ونزوعه نحو التقدم، تحت تعلة أنها لا تصلح للعصر وعلومه وثوراته المعلوماتية.

ونعود إلى أكرم الحوراني لنقول إن تركيبته النفسية وحساسيته ثائراً منذ نعومة أظافره جعلته دائماً شديداً في نقده. يسلك الطريق الوعر، ويتقدم المعارضة بخطوات. لذلك خافته السلطات، واعتبرته ضيفاً غير مرغوب فيه عندما حلّ في بلدانها خلال رحلة المنفى. لذلك لم يسعه الوطن العربي، فاختار غصباً عنه ضاحية من

ضواحي باريس «مربط خيلنا».

وتفيدنا تجربة الحوراني الغائرة في قلب الحياة السورية على مدى أكثر من نصف قرن أن تجربة البعث العربي الإشتراكي في القطرين السوري والعراقي لم تخل من بصماته. لذلك كان مرة من صُنَّاعِها، ومرة ثانية من ضحاياها.

فالحوراني سيرة وطنية إرتبطت بالوطن منذ أوائل عقد الثلاثينات من القرن العشرين، كما أسلفنا، وأصبح بعد ذلك سيرة حزبية لأنه أسس العربي الإشتراكي الأخ التوأم لحزب البعث العربي الإشتراكي، ثم سيرة قومية منذ أن حمل سلاحه وتوجه إلى العراق ليقاتل في صفوف ثورة رشيد عالي الكيلاني، ثم التحاقه بالمجاهدين ليدافع عن عروبة فلسطين، وانتهاء بمنصبه نائباً لرئيس الجمهورية العربية المتحدة، غداة الإعلان عن الوحدة السورية ـ المصرية.

وتدعونا هذه التجربة إلى دراسة هذه المرحلة التاريخية، التي سمّاها شريكه وقرينه في قيادة حزب البعث العربي الإشتراكي الأستاذ ميشيل عفلق مرحلة البدايات أو «نقطة البداية»، دراسةً تستهدف إستخلاص الدروس والعبر. لذلك، فإن النقد المطلوب لا بدَّ أن يعتمد على ما كان يجري من أحداث على أرض تلك التجربة، مستفيداً من العلوم الإجتماعية والسياسية، ومن تعدد المداخل إلى تلك الحوادث داخل زمانها ومكانها وأشخاصها.

وتفيدنا سيرته الوطنية والقومية في أن رهانه على الحياة المدنية وتمسّكه بالديمقراطية والإنتخابات البرلمانية كان في محله ويتسم

ببعد النظر، وهو ما يحسب له دائماً. فقد خسرت الأمة العربية كثيراً عندما ابتعدت عن الحياة الديمقراطية، وكان الغرم كبيراً ومكلفاً للأجيال العربية، جيلاً بعد جيل، إلى أن نسترد ذلك الأسلوب من الحكم، لأن المواطن الذي يتربّى في تربة ديمقراطية ويمارس النقد، ويكون له دوره في تقرير مصير الحكم، هو وحده الذي يواجه الأخطاء والتحديات ويخوض معركة المصير العربي على أحسن وجه. والجدير بالقول إن الوطن العربي يتسع لكل أبنائه، على قاعدة الرجل المناسب في المكان المناسب، إذا قامت حياته على الحرية السياسية والإيمان الحقيقي بالرأي والرأي الآخر، وسادته العقلانية والمنطقية في التعامل اليومي بين أبنائه من جهة، وبينهم وبين نشاطهم الإجتماعي والسياسي والثقافي من جهة ثانية. ألم يصل الحوراني إلى منصب رئيس مجلس النواب بالإنتخابات الديمقراطية، وكان هذا المنصب مدخله الحقيقي إلى شغله وظيفة نائب رئيس للجمهورية العربية المتحدة؟

وهذه النتيجة تقودنا إلى خلاصة أخرى مفادها أن هناك الكثير من القضايا العربية، الجهوية والوطنية والقومية، متداخلة تداخلاً عميقاً. وهي وليدة قوة الأشياء التي يحكمها قانون الوحدة العربية، ونضال هذه الوحدة. فكم من الأحداث العربية حرّكت الشارع العربي من المحيط إلى الخليج؟ وشهدت ساحاته المظاهرات التي يتجاوز عددها المليون نسمة. وكم من ناشط سياسي تحول إلى قائد وطني وقومي في وقت واحد؟ وحركت خطبه الجماهير العربية... وكان الحوراني واحداً من هؤلاء.

ومن المهم القول إن في تاريخ الحوراني مساحة واسعة لتاريخ الحركة الفلاحية، وفي جانب منه تقرأ تاريخ الأحزاب السياسية، وما تبقى من ذلك التاريخ تجد مشاهدَ كثيرة عن نضال الجماهير العربية التي شارك فيها.

ولا شك أن شخصاً مثله، له هذا الحضور وهذه القامة التاريخية يُفْتَرَض تلقائياً أن يكون في قلب الحدث الوطني مرات ومرات، وفي قلب الواقعة القومية أكثر من مرة. لذلك فإن مذكُراته التي ننتظرها بفارغ الصبر ستقول وتروي أحداثاً كثيرة هو صاحب القول الفصل فيها. وستكون بمثابة شاهد حي على مستويات حضوره أو وجوده في تلك المشاهد.

ولذلك سمعنا عنه وهو في فرنسا أنه قد فرَّغ نفسه لتلك المهمة يراجع الكتب والوثائق والمجلات والصحف، ويقابل من يوم لآخر طلبة العلم والمعرفة من طلاب دراسات عليا وباحثين ومعلقين.

ولقد كان الدورُ الذي لعبه الحوراني على الساحة السياسية بكل نجاحاتها وفشلها مدعاةً لاهتمام الجامعات ومراكز البحث بشخصه واختياراته وتاريخه.

فصار له فيها أرشيفه الخاص. وفي تلك المراكز والجامعات الأجنبية يعرفون عنه أكثر مما تعرفه عنه جامعاتنا العربية، لأن المعرفة الأكاديمية عندنا محكومة بالسياسة.

وسواء شئنا أم أبينا، أحببنا أم كرهنا، فالحوراني صاحب مقام رفيع في السياسة الوطنية. وزَرْعُهُ في أرضها لن يموت أبداً.

كما نستنتج من تاريخه دروساً مستفادة منها أن العقلية العربية لا تزال بحاجة إلى التعود على قبول الرأي والرأي الآخر، وأهمية تعايش الثقافات المحلية أو الجهوية والمذهبية تعايشاً خلاّقاً يعطي لحرية الرأي القيمة العليا، دون أي تعليل أو مواربة، حتى لا تتغلب نزعة الإنقسام في عصبيات تلك الثقافات على نزعة الالتحام.

وهذا الأمر يتطلب تجديد المواثيق المحلية والوطنية والقومية، وتقوية أواصر العروة الوثقى بين الفئات الإجتماعية كافة، المحلية منها وأصحاب الملل والمهن والحرف وفق مبدأ العدل الاجتماعي والمساواة في الحقوق والواجبات ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب. وهذه الأمور مجتمعة أو منفردة تتطلب تطوير الثقافة العربية تطويراً متزناً يؤدي إلى زوال كل ما من شأنه إعاقة مبدأ المساواة والعدل الاجتماعي وحرية الرأي والتعبير.

وتوصلنا إلى نتيجة مفادها أن النخب العربية لا تزال محكومة إلى ما في ماضيها من عصبيات ضيقة تتنافى مع روح العصر، وتعاكس كل ما من شأنه الإسهام في تقدم المجتمع العربي وتطوره، وخصوصاً الحسابات التي تعطي الأولوية للقضايا الشخصية أو المحلية على حساب القضايا الوطنية والقومية.

ولا شك أن هذا النمط من الحسابات يُضْعِفُ الوحدة الإجتماعية، ويُكْثِرُ من الأحقاد، ويُخْبِطُ قوة المبادرة في الأفراد والجماعات، ويُهَيِّىءُ الحضورَ للنزعات السلبية، ويُقَوّي الميلَ لخلق الدوافع الإنطوائية وضعف الروح الوطنية والقومية، ويُهَيِّجُ الغل والأحقاد في النفوس. وخلصنا إلى أن كُلاً من مفهوم الحزبية

والحزب لا يزال يَعْتَوِرُهُ الكثير من العناصر الثقافية الجهوية والعشائرية، ويتخلله العديد من العلاقات الموروثة من البنى الإجتماعية القبلية بكل ما تعني من مواقف وفعل ورد فعل وولاءات ونزعات. وهذا يعني، من جملة ما يعنيه، أن الأحزاب في الوطن العربي على وجه العموم لا تزال خاضعة للإرث القبلي بكل سلبياته ونقاط ضعفه، ومحكومة بالقوانين الإجتماعية التي تحكم المجتمع القبلي، وأن الازدواجية الثقافية في الأفعال هي السمة الطاغية على سلوك العديد من الحزبيين.

ولا شك أن هذه الظواهر المستخلصة من خلال تاريخ الحوراني وتجربته السياسية في سياقها الوطني تربة صالحة لنمو ظواهر أخرى أكثر خطورة، وهي أن نزعة الإنقسام تقوى على حساب نزعة الإلتحام في العصبيات الموجودة داخل المجتمع العربي، وخصوصاً داخل الأحزاب، والمنظمات والهيئات الإجتماعية والسياسية. كما أن فرص الاختراق الخارجي تتزايد لبنى الأحزاب، لأن النعرات الضعيفة تقوى على حساب الولاء للحزب والوطن والأمة، وتلك النعرات هي المنافذ الآمنة للاختراق الخارجي بكل مستوياته وأغراضه وجهاته.

ويبقى السؤال؛ ما العمل تجاه النتائج المستخلصة من تاريخ أكرم الحوراني، لأن في المسيرة العربية الكثير من النواقص والسلبيات والنكسات التي جعلت الوطن العربي يخسر معارك عدة، وكان للأحزاب القومية نصيبها في هذه النكسات، وهي مسؤولة أيضاً عن الحالة العربية الراهنة التي لا نحسد عليها على الإطلاق؟

نسأل ونتساءل عن حوار جدي بين أحزاب البعث العربي الاشتراكي، وندعو إلى لقاء خلاق بين قواعد هذه الأحزاب، لأن اللقاء شرط التصحيح على الساحة الوطنية والقومية. ثم نسأل لماذا كانت المبادرة تنطلق من دمشق، أبحكم الدور القومي لسوريا؟

المحتويات